مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع

الأدب العالمي للناشئين

اللؤلؤة

تأليف: جون شتاينبك





اللؤلؤة

اللؤلؤة

تأليف: جون شتاينبك

ترجمة: محمد عبد الحميد جمال

مراجعة: مختار السويفى



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمي للناشئين)

اللؤلؤة
تأليف: جون شتاينبك
ترجمة: محمد عبدالحميد جمال
مراجعة: مختار السويفي

الغلاف للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

هذه ترجمة لرواية :

THE PEARL

By : John Stienbek

المؤلف

ولد جون شتاينبك في ساليناس بكاليفورنيا في عام ١٩٠٢ .
وبعد دراسته للعلوم في جامعة ستانفورد اشتغل في مهن مختلفة: إذ اشتغل عاملا وصيدليا وخفيرا وجانيا لمحاصيل الفاكهة ومساحا للأراضي على التوالي.

وكانت أولى رواياته التي صدرت في عام ١٩٢٩ تحت عنوان «فنجان من الذهب» تتحدث عن مورجان قرصان البحر. وأهم مؤلفاته الروائية هو كتاب «عناقيد الغضب» وقد صدرت هذه الرواية في عام ١٩٣٩ . وتعتبر أكثر كتبه انتشارا وأحبها لدى قلوب القراء.

وتدور أحداث هذه الرواية حول أسرة مهاجرة تسعى للحصول على عمل في كاليفورنيا. وقد حصلت هذه الرواية على جائزة بوليتزر. وكان لها تأثير عظيم على الناس، حتى أنهم عقدوا مقارنة بينها وبين رواية «كوخ العم توم».

ومن رواياته الأخرى الشهيرة: شرق عدن، رجال وفئران، يوم التحضير الجميل، ضوضاء مصنع التعليبات.. وهناك أيضاً مجموعاته القصصية القصيرة بالإضافة إلى خطابات شرق عدن.

وفي عام ١٩٦٢ حصل جون شتاينبك على جائزة نوبل في الأدب. وتوفي في عام ١٩٦٨.

في المدينة يحكون قصة اللؤلؤة العظيمة.. كيف عثر عليها وكيف فقدت مرة أخرى.. فهم يتحدثون عن كينو صياد الأسماك وعن زوجته جوانا.. وعن الطفل كويوتيتو. ولأن هذه القصة قد حكيت مرات عديدة، فقد ضربت بجذورها في عقل كل انسان.. ومثلما هو الحال بالنسبة لكافة القصص التي تروى من جديد وتتناقل وتجد لها مكانا في قلوب الناس، فلن يكون هناك سوى الأشياء الحسنة والأشياء الرديئة.. الأشياء السوداء والأشياء البيضاء.. الأشياء الخيرةوالأشياء الشريرة.. وليس هناك شيء وسط ولا تظليل في أي مكان.

وإذا كانت هذه القصة بمثابة حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي فإن كل شخص قد يستخلص منها المعنى الذي يريده لنفسه، ويقرأ فيها حياته الخاصة به.. وعلى أية حال فهم يقولون في المدينة أن....

الفصل الأول

استيقظ كينو في الفترة الأخيرة من الظلام. كانت النجوم مازالت تسطع.. وكان النهار قد ألقى بمسحة شاحبة من الضوء على السماء من ناحية الشرق. وكانت الديكة قد بدأت تصيح لبعض الوقت. وكانت الخنازير المبكرة قد بدأت بالفعل في التقليب الدؤوب المستمر بين الأغصان وقطع الأخشاب لترى ما إذا كان هناك أي شيء يصلح لأن تتناوله كطعام.

وخارج المنزل المصنوع من الحطب والأغصان والموجود في أدغال أشجار الكمثرى، شقشق سرب ضئيل من الطيور الصغيرة وضرب بأجنحته في الهواء. وفتحت عينا كينو. فنظر أولا إلى

المربع العصبي، الذي كان بمثابة الباب، ثم نظر إلى الصندوق المعلق الذي ينام فيه كويوتيتو. ثم استدار برأسه أخيراً نحو زوجته جوانا التي كانت ترقد إلى جواره على الحصيرة وقد غطى الشال الأزرق الخاص برأسها أنفها وثدييها وأسفل ظهرها..

كانت عينا جوانا مفتوحتين أيضاً.. ولا يذكر كينو أنه استيقظ ذات يوم وشاهد عيني زوجته مغلقتين.. وأحدثت عيناها السوداوان نجوماً صغيرة منعكسة.. كانت تنظر إليه مثلما كانت تنظر إليه دائماً عندما يستيقظ.

وسمع كينو الصوت الخفيض لأمواج الصباح وهي تتكسر على الشاطيء.. كان صوتاً جميلاً للغاية.. فأغمض كينو عينيه مرة أخرى لكي يستمع للموسيقى التي يصدرها هذا الصوت. ربما كان هو وحده الذي يفعل هذا، وربما كان كل أهله قد فعلوا ذلك أيضاً.. إذ كان أهله وأقربه من واضعي الأغاني العظام ذات يوم لدرجة أن كل شيء شاهدوه أو فكروا فيه أو سمعوه أصبح أغنية يشدون بها.

كان ذلك منذ زمن بعيد للغاية. وظلت الأغاني باقية.. كان كينو يعرف تلك الأغنيات إلا أنه لم يقم بإضافة أغاني جديدة. وذلك لا يعني أنه لم تكن هناك أغنيات شخصية. ففي رأس كينو كانت تتردد أغنية معينة.. أغنية واضحة وصافية ورقيقة. ولو كان باستطاعته أن يتحدث عنها لكان قد أطلق عليها اسم "أغنية العائلة".

كانت البطانية مرفوعة فوق أنفه لكي تحميه من الهواء الشديد الرطوبة. وثقافت عيناه على حفيف بجواره. كانت جوانا تنهض من نومها بدون أن تحدث أي صوت تقريبا. وسارت على قدميها العاريتين إلى الصندوق المعلق الذي ينام فيه كويوتيتو. وانحنت على الصندوق وقالت كلمة واحدة صغيرة.. كلمة تبث الهدوء والطمأنينة في قلب الطفل. فنظر كويوتيتو لأعلى للحظات قليلة ثم أغلق عينيه واستسلم للنوم مرة أخرى.

وذهبت جوانا إلى حفرة النيران وكشفت عن الفحم وراحت تهوي عليه بمروحة لكي يزداد اتقادا، وكسرت قطعا صغيرة من أخشاب الأغصان ووضعتها على الفحم المشتعل.

وفي تلك الآونة نهض كينو من فراشه ولف بطانيته حول رأسه وأنفه وكتفيه، ودفع بقدميه في الصندل الجلدي وخرج ليرقب بزوغ الفجر.

وفي الخارج عند الباب جلس القرفصاء وألقى بطرفي البطانية حول ركبتيه، وشاهد بقعا من سحب الخليج وهي تتوهج عالية في الهواء، واقتربت منه عنزة وتشممته وأبدت استحقاقها به وحملقت بعينيها الصفراوين الباردتين، وخلفه تفجرت نيران جوانا بألسنة اللهيب، وألقت برماح الضوء عبر شقوق حائط المنزل المصنوع من الأغصان وألقت بمربع ضوئي متأرجح خارج الباب، وعربدت حشرة مجنحة لكي تعثر على النيران، وعندئذ جاءت أغنية العائلة من خلف كينو، وكان إيقاع أغنية العائلة هو حجر الطحن، حيث كانت تطحن جوانا القمح لكي تعد فطائر الصباح!

وهبط الفجر بسرعة في تلك الآونة وملأ الضياء صفحة السماء، تفجر بالنيران عندما بزغت الشمس من الخليج، ونظر كينو إلى أسفل لكي يحمي عينيه من وهج الشمس، وكان باستطاعته

سماع الطبطبة الخفيفة لكعك القمح بالمنزل بالاضافة إلى شم الرائحة القوية للكعك لدى وضعه في وعاء الطهي.

وكان النمل منهمكا ومشغولا فوق الأرض. نمل أسود كبير له أجسام لامعة.. ونمل صغير وسريع ومغبر بالتراب. وكان كينو يرقب ذلك بكثير من التجرد الالهي البعيد عن التحيز. بينما كانت نملة صغيرة تحاول في جنون الهرب من الفخ الرملي الذي حفرته لها حشرة من آكلات النمل..

واقترب كلب نحيل ورعديد ولدى سماعه كلمة طيبة من كينو جلس متكورا واضعا ذيله في براعة فوق قدميه ثم وضع ذقنه في شيء من الرقة على الكومة. كان كلبا أسود اللون وكانت له بقع ذهبية صفراء في الأماكن التي كان ينبغي أن يكون بها حاجب العين.. كان صباحا مثل كل صباح آخر ولكنه كان صباحا ممتازاً وبالغاً حد الكمال إذا قورن بغيره من الأيام الأخرى.

سمع كينو صرير الحبل عندما قامت جوانا بإخراج كويوتيتو من صندوقه المعلق ونظفته وراحت تأرجحه في شالها في

أنشوطة جعلته قريبا من صدرها. وكان باستطاعة كيلو مشاهدة هذه الأشياء بدون أن ينظر إليها. وراحت جوانا تتغنى في رقة وحنان بأغنية قديمة ليس بها سوى ثلاث نغمات ولكنها تحتوي على تنوع لا نهائي للفاصلة الموسيقية. وكان هذا جزءا من أغنية العائلة أيضاً.. كانت أحيانا ترتفع إلى ترنيمة مؤلمة تمسك بالحلق قائلة: هنا أمن وأمان.. هنا دافىء.. هذا هو الكيان الكلى!!

وعبر سور الأدغال كانت هناك منازل أخرى مصنوعة من الأغصان. وكان الدخان يتصاعد من تلك المنازل أيضاً، كما كانت تصدر عنها أصوات اعداد طعام الافطار.. إلا أن تلك الأصوات كانت أغنيات أخرى.. وخنازيرهم كانت خنازير أخرى.. وزوجاتهم لم يكن جوانا.. كان كينو ممتلئا بالقوة والحيوية وكان شعره الأسود متدليا فوق جبينه البني اللون. كانت عيناه دافئتين وشرستين في توحش وناصعتين. وكان شاربه رفيعا وخشنا. وأنزل بطانيته عن أنفه لأن الهواء الرطب قد تلاشى وسقط ضوء الشمس الذهبي الأصفر فوق واجهة المنزل.

وبالقرب من سور الأدغال انحنى ديكان واستعدا للدخول في المبارزة والشجار بنشر الأجنحة ونكش الريش فوق الرقبة . وكان من المتوقع أن يكون القتال ثقيل الحركة وخاليا من المهارة القتالية . فالديكان لم يكونا من ديوك المصارعة . وراح كينو يرقبهما للحظات قصيرة ، وبعدئذ اتجهت عيناه إلى أعلى نحو حمامتين بريتين كانتا تحلقان في اتجاه التلال .. لقد استيقظ العالم في تلك الآونة .. ونهض كينو وذهب إلى منزله.

ولدى دخوله من الباب ، نهضت جوانا واقفة حيث كانت تجلس بجوار حفرة النيران المتوهجة . ثم أعادت ابنها كويوتيتو إلى صندوقه المعلق ، وبعدئذ راحت تمشط شعرها الأسود وتضفره إلى ضفيرتين . ثم ربطت طرفي الضفيرتين بشريط أخضر اللون . وجلس كينو القرفصاء بجوار حفرة النيران وأخرج كعكة مصنوعة من القمح وغمسها في الصلصلة ثم أكلها . وبعدئذ شرب قليلا من «البلكة»[1] وكان هذا هو كل أفطاره .. بل هو الافطار الوحيد الذي

---

(١) شراب مسكر يصنع في المكسيك من عصير الصبار الأمريكي .

عرفه على مدى الأيام العديدة باستثناء أيام الأعياد، وباستثناء أحد الأعياد الدينية الرائعة والتى تناول فيها بسكويتا كاد يقضى على حياته.

وعندما إنتهى كينو من تناول طعام افطاره عادت جوانا إلى النيران وتناولت طعام افطارها. كانا قد تكلما مرة واحدة، فليست هناك حاجة للكلام والمسألة ليست سوى عادة، وتنهد كينو تنهيدة تعبر عن الرضاء والارتياح.. وكانت تلك التنهيدة بمثابة محادثة!

كانت الشمس تشع بالدفء وتنشره فى أرجاء المنزل المصنوع من الأغصان وتنفذ من الشقوق بالمنزل على هيئة خطوط طويلة. وسقط أحد الخطوط الضوئية على الصندوق المعلق الذى يرقد فيه كويوتيتو وعلى الحبال التى تمسك بالصندوق.

وحدثت حركة ضئيلة أدت إلى جذب عيونهما نحو الصندوق المعلق. وتجمد كينو وجوانا فى مكانيهما. فأسفل الحبل المتدلى من السقف والذى يمسك بالصندوق كان هناك عقرب يتحرك فى بطء. وكان ذيله اللادغ ممتدا وراءه. وكان باستطاعته أن يضرب به لأعلى فى حركة خاطفة فى لمح البصر.

وراحت أنفاس كينو تحدث صفيراً وأزيزا في فتحتي أنفه، فتتح فمه لكي يوقف هذا الأزيز. وبعدئذ زالت عنه النظرة المليئة بالدهشة البائنة وزال التخشب والتصلب عن جسده. كانت أغنية جديدة قد طافت بداخل ذهنه. أغنية الشر.. موسيقى العدو.. موسيقى أي عدو للأسرة. ميلوديا متوحشة وسرية وخطيرة.. وصاحت إلى أسفل أغنية العائلة في صوت نائح مليء بالأنين.

وتحرك العقرب في رقة وهدوء هابطا على الحبل نحو الصندوق. فراحت جوانا تترنم وتكرر في سرها وبصوت هامس خافت كلمات سحرية قديمة للوقاية من مثل هذا الشر. وبالاضافة إلى كل ذلك راحت تتمتم بعبارة «السلام لك يامريم» وهي تضغط على أسنانها.

ولكن كينو كان يموج بالحركة. كان جسده ينزلق في هدوء عبر الغرفة في صمت ونعومة وسلاسة. وكانت يداه أمامه وراحتا يديه إلى أسفل وعيناه تتابعان العقرب.. وتحت العقرب وفي داخل الصندوق المعلق كان كويوتيتو مستغرقا في الضحك وكان يمد يديه إلى أعلى نحو العقرب. وأحس العقرب بالخطر الذي سيداهمه

عندما أصبح قريباً للغاية من يدى كينو. فتوقف وارتفع ذيله لأعلى فوق ظهره في انتفاضات فجائية متتالية ولمعت الشوكة المعقوفة عند نهاية الذيل.

فوقف كينو في سكون تام. وتمكن من سماع جوانا وهي تهمس بالسحر القديم مرة أخرى، كما تمكن من سماع موسيقى الشر الخاصة بالعدو. ولم يكن بمقدوره أن يتحرك قبل أن يتحرك العقرب. ونحى العقرب بمصدر الموت الذي شرع في السعي إليه. وزحفت يد كينو للأمام في بطء شديد وفي سلاسة شديدة. واهتز لأعلى الذيل المزود بالشوكة. وفي تلك اللحظة هز كويو تيتو الغارق في الضحك الحبل فسقط العقرب.

فقفزت يد كينو للامساك به إلا أنه أفلت من بين أصابعه وسقط فوق كتف الطفل الرضيع واستقر على الكتف ولدغ. وعندئذ زمجر كينو في غضب هائل وأمسك بالعقرب. أمسك به بين أصابعه وراح يفركه ويسحق إلى أن تحول العقرب إلى معجون في يديه. ثم ألقى به على الأرض وأخذ يضربه بجماع يده بينما أخذ كويو تيتو في الصراخ في صندوقه بسبب الآلام. إلا أن كينو راح يضرب

ويسحق العدو إلى أن أصبح مجرد بقايا وأشلاء ومكانا رطبا في الوحل. كان كينو مكشرا عن أنيابه وكان الغضب يتوهج بين عينيه وكانت أغنية العدو تزار في أذنيه.

ولكن جوانا كانت قد أمسكت بالطفل الرضيع بين ذراعيها في تلك اللحظة وعثرت علي الثقب الذي ظهر منه الاحمرار بالفعل فوضعت شفتيها فوق الثقب وراحت تمتص بقوة وتبصق، بينما كويو تيتو يصرخ بكيا.

وبدأ كينو يرفرف متأرجحا. كان عاجزا عن عمل أي شيء، كان في حالة تجعله يعرق ويعوق أي اجراء أو عمل.

وتسببت صرخات الطفل الرضيع في مجيء الجيران.. فراحوا يتدفقون من منازلهم المصنوعة من الأغصان.. إذ حضر شقيق كينو الذي يسمى جوان توماس كما حضرت زوجته أبولونيا المتلئة وأولادها الأربعة وتجمهروا جميعا عند الباب وسدوا المدخل، بينما كان يوجد خلفهم أناس آخرون يحاولون النظر إلى داخل المنزل وزحف ولد صغير بين السيقان ليتمكن من القاء

نظارة. وأولئك الذين كانوا في المقدمة نقلوا الخبر إلى أولئك الذين كانوا في الخلف.. العقرب.. لقد لدغ العقرب الطفل الرضيع!.

وتوقفت حوانا عن امتصاص السم من الثقب للحظات. وكان الثقب الضئيل قد اتسع قليلاً وأصبحت حوافه بيضاء نتيجة لعملية الامتصاص، إلا أن الورم الأحمر امتد إلى رقعة واسعة حول الثقب وأصبح على شكل كومة متصلبة. وكان كافة هؤلاء الناس يعرفون المعلومات الكافية عن العقارب.. كانوا يعرفون أن الشخص اليافع قد يتعرض للمرض الشديد إذا لدغه عقرب، ولكن الطفل الصغير يمكن أن يموت بكل سهولة بسبب التسمم.. كانوا يدركون أن الورم يظهر في بادىء الأمر ويعقبه الحمى والضيق في الحلق. وبعدئذ تحدث تقلصات في المعدة، وهنا يمكن أن يتعرض كويو تيتو للموت إذا كانت كمية كبيرة من السم قد تسربت إلى داخل جسده. إلا أن الآلام اللاسعة الناجمة عن اللدغ كانت قد أخذت في التلاشي حيث أصبحت صرخات كويو تيتو مجرد أنين خافت.

وكثيرا ما أبدى كينو دهشته الشديدة من الصلابة الحديدية التي تتميز بها زوجته الصبورة الرقيقة. إذ كانت سيدة مطيعة ومحترمة

ومرحة وصبورة، وباستطاعتها أن تقوس ظهرها أثناء المخاض بدون أن تطلق صرخة واحدة. كان باستطاعتها تحمل آلام التعب والجوع على نحو أفضل من كيكو ذاته. فهي في نظر «الكنو» كانت مثل رجل قوي. وها هي الآن قد فعلت شيئا مثيرا للدهشة البالغة.

قالت: «الطبيب!»

واستطردت: «اذهب لاحضار الطبيب». ومرت الكلمة منتشرة بين الجيران الواقفين في تزاحم شديد بالفناء الصغير الواقع خلف السور المصنوع من الأغصان.. فراحوا يكررون بين أنفسهم عبارة «جوانا تريد طبيبا». شيء عجيب أن يطلب طبيب.. بل هو شيء بارز ينبغي أن يسجل في التاريخ. فاحضار الطبيب سيكون أمرا بارزا حقا. إذ لم يسبق للطبيب أن جاء إلى مجموعة المنازل المصنوعة من الأغصان على الاطلاق.. ولماذا يحضر؟.. فهو لديه الكثير من الناس الأغنياء الذين يمكنه الاعتناء بصحتهم والذين يسكنون بالمنازل المصنوعة من الأحجار والمكسوة بالجص في المدينة!

وقال الناس الذين كانوا بالفناء: «لن يحضر الطبيب!». وقال الناس الذين كانوا عند فتحة الباب: «لن يحضر الطبيب!».. فترسخت الفكرة في عقل كينو.

فقال كينو لزوجته جوانا: «لن يحضر الطبيب!».

فنظرت نحوه.. وكانت عيناها في نفس برود عيني اللبوة.. لقد كان هذا الطفل هو أول طفل أنجبته جوانا.. ولذلك كان بمثابة كل شيء تقريبا في حياتها.. وشاهد كينو تصميمها الشديد وتردد صوت موسيقى العائلة في داخل رأسه في نغمة قوية.

وقالت جوانا: «إذن، سوف نذهب إليه».

وبيد واحدة عدلت من أوضاع الشال الأزرق الغامق الذي كان يغطي رأسها بحيث جعلت إحدى طرفيه يتدلى ليستوعب الطفل المتوجع في أنين، مع جعل الطرف الآخر ستارا لحماية عينيه من ضوء الشمس. وتدافع الناس الواقفون عند الباب للوراء ليدفعوا للوراء الناس الآخرين الواقفين خلفهم لكي تتمكن جوانا من الخروج من الباب. وتبعها كينو. وخرجا من البوابة إلى الممر المليء بالأخاديد والحفرات. فسار وراءهما الجيران كلهم..

واهتم الجيران بهذا الأمر اهتماما بالغا. إذ ساروا فى موكب بخطوات سريعة وخفيفة إلى قلب المدينة .. جوان وكينو فى المقدمة ووراءهما جوان توماس وزوجته أبولونيا التى كان كرشها الضخم يهتز مع إيقاع الخطوات النشطة المتحمسة. وبعدئذ كان جميع الجيران مع أطفالهم يهرولون على الجانبين. وكانت الشمس الصفراء تلقى بظلالها السوداء أمامهم حتى أنهم كانوا يسيرون فوق الظلال الخاصة بهم.

ووصلوا إلى المكان الذى انتهت عنده المنازل المصنوعة من الأغصان وبدأت مدينة الأحجار والجص.. مدينة الحوائط الخارجية الخشنة الجافة والحدائق الداخلية ذات الهواء الرطب المنعش حيث تتحرك مياه قليلة وحيث تكسو النباتات الحوائط بالألوان الأرجوانية والحمراء الطوبية والبيضاء. ومن الحدائق السرية ترامى إلى سمعهم غناء الطيور المحبوسة فى الأقفاص ورشرشة ماء التبريد فوق الأحجار الوحية الساخنة. وعبر الموكب الميدان العمومى الكبير ومروا أمام الكنيسة .. وهنا أصبح عدد السائرين بالموكب متزايدا. وعند أطراف الموكب كان المنضمون

الجند المسارعون للحاق بالموكب يتم إبلاغهم في هدوء بأن الطفل الصغير قد لدغه عقرب وأن أباه وأمه يحملانه إلى الطبيب.

ونظر المتممون الجدد وخاصة الشحاذون الذين جاءوا من أمام الكنيسة واثنين كانوا خبراء في التحليل المالي بسرعة إلى الجوهرة الزرقاء القديمة الخاصة بجوانا وشاهدوا الدموع في شالها وتبعوا الشريط الأخضر الموجود في ضفائرها وقرأوا العمر الزمني لبطانية كينو وعرفوا أن ثيابه قد غسلت ألف مرة فأدركوا أن كينو وجوانا من الفقراء المعدمين واستمروا في سيرهم مع الموكب ليشهدوا بأنفسهم نوع الدراما التي يمكن أن تنشأ عن ذلك.

كان الشحاذون الأربعة الواقفون أمام الكنيسة يعرفون كل شيء في المدينة. كانوا يلاحظون التعبيرات التي تظهر على وجوه الفتيات الشابات لدى دخولهن للكنيسة للاعتراف. وكانوا يشاهدونهن لدى خروجهن ويقرأون على وجوههن نوع وطبيعة الخطيئة التي ارتكبت.. كانوا يعرفون كل فضيحة صغيرة وبعض الجرائم الكبرى للغاية. كانوا ينامون في مواقعهم تحت ظل الكنيسة لكي لا يتسلل أحد إلى داخل الكنيسة للعزاء بدون علمهم. بل وكانوا يعرفون

الطبيب ويعرفون جهله وقسوته وجشعه وحبه للأموال ويعرفون خطاياه. كما كانوا يعرفون حالات الإجهاض غير الدقيقة التي يقوم بها. والبنسات القليلة البنية اللون التي يتصدق بها على الفقراء. وكانوا قد شاهدوا جثته وهي تدخل إلى الكنيسة.. ونظرا لانتهاء «القداس» المبكر ونظرا لأن «الشغل» لديهم أصبح بطيئاً، فإنهم ساروا وراء الموكب ليروا بأنفسهم ما سيفعله الطبيب الكسول مع طفل رضيع تغير لدغه عقرب.

وأخيرا وصل الموكب المنطلق بسرعة إلى البوابة الضخمة الموجودة بسور منزل الطبيب. وكان باستطاعتهم سماع رشرشة المياه وتغريد الطيور الحبيسة بالأقفاص وأصوات المقشات الطويلة التي تكنس الأحجار البلوحية الساخنة. كما كان باستطاعتهم شم رائحة قلي لحوم الخنزير الجيدة المنبعثة من منزل الطبيب.

وتردد كينو للحظات قليلة. فهذا الطبيب لم يكن من أهاليه. إذ كان هذا الطبيب ينتمي لعنصر بشري قام على مدى أربعمائة عام تقريبا بضرب وسرقة واحتقار العنصر البشري الخاص بكينو وتجويعه حتى الموت.. بل وتخويفه أيضاً، حتى أن الحيوان الأهلي اقترب في تواضع وتذلل من الباب.

وشعر كينو بالضعف والخوف والغضب في نفس الوقت وهي نفس المشاعر التي كان يحس بها دائما كلما اقترب من أحد أفراد هذا الجنس البشري. إذ كانت مشاعر الغضب والرعب تتصاعد في داخله في آن واحد.. وكان بمقدوره أن يقتل الطبيب في سهولة ويسر وعلى نحو أكثر سهولة من التحدث إليه. لأن كافة أعضاء العنصر البشري الخاص بالطبيب كانوا يتحدثون مع أفراد العنصر البشري الخاص بكينو كما لو كانوا مجرد حيوانات. وعندما رفع كينو يده اليمنى نحو مطرقة الحلقة الحديدية بالبوابة، تصاعد الغضب في داخل كيانه وراحت موسيقى العدو تخفق في عنف وتضرب وتدق في داخل أذنيه، وضغطت شفتاه في إحكام على أسنانه.. إلا أن يده اليسرى إمتدت لترفع قبعته.. ودقت الحلقة الحديدية في عنف فوق البوابة. وخلع كينو قبعته ووقف منتظراً. وتوجع كويو تيتو في شيء من الأنين بين ذراعي جوانا فتحدثت إليه في رفق وحنان.. وتزاحم الموكب في مزيد من الاقتراب بهدف التمكن من الرؤية والاستماع على نحو أفضل.

وبعد لحظات فتحت البوابة الضخمة فتحة صغيرة لا تزيد عن بوصات قليلة. وتمكن كينو من مشاهدة البرودة الخضراء للحديقة ونافورة صغيرة ترشرش بالماء من خلال تلك الفتحة الصغيرة. وكان الرجل الذي أطل برأسه من فتحة البوابة ونظر إليه هو أحد أفراد الجنس البشري الخاص بكينو. فتحدث إليه كينو باللغة القديمة. قال كينو: «الطفل الصغير، المولود الأول، قد أصيب بالتسمم الناجم عن لدغة عقرب». واستطرد: «والأمر يستلزم مهارة المعالج!».

فأغلقت البوابة قليلاً ورفض الخادم التكلم باللغة القديمة. وقال: «لحظة من فضلك. سأبلغ هذا الكلام بنفسي». وأغلق البوابة وأوصدها بالمزلاج. وألقت الشمس المتوهجة بأظلال العنقودية المحتشدة للناس على الحائط الأبيض فظهرت مثل رقعة سوداء.

وفي غرفته جلس الطبيب معتدلاً في سريره العالي.

كان مرتديا عباءته الحريرية المنسوجة باللون الأحمر والتي جاءته من باريس والتي أصبحت الآن ضيقة قليلا عند الصدر في

حالة قفلها بالأزرار وفوق حجره كانت هناك صينية من الفضة بها إناء مليء بالشيكولاته فضي اللون وإناء من الخزف الصيني له لون قشرة البيضة وكانت تلك الصينية رقيقة للغاية حتى أنها بدت غير معقولة ومضحكة عندما رفعها بيده الضخمة حيث رفعها بأطراف إصبع الإبهام وأصبع السبابة، ونشر الأصابع الثلاثة الأخرى بعيدا ليزيحها بعيدا عن الصينية.. واستقرت عيناه على قطع اللحم الصغيرة المنتفخة وتدلي فمه في استياء. إذ كان جسده قد أصبح ممتلئا للغاية وبدينا. وأصبح صوته خشنا ومتحشرجا بسبب الدهون التي تضغط على حلقه.

وإلى جواره فوق منضدة كانت هناك علبة للسجائر وقرص نحاسي بفرع للنداء. وكانت مفروشات الغرفة ثقيلة ومظلمة وكئيبة. وكانت الصور المعلقة لها طابع ديني، بما في ذلك الصورة الفوتوجرافية الكبيرة الخفيفة الألوان والخاصة بزوجته الميتة والتي أصبحت في أحضان السماوات، إذا كانت القداسات الدينية التي نفذت بناء على وصيتها، وصرفت عليها من إيرادات الضيعة التي كانت تملكها، قد أتت بالنتيجة المرجوة.

لقد كان الطبيب ذات يوم ولفترة قصيرة جزءا من العالم العظيم وأصبحت كل فترات حياته التالية بمثابة ذكرى وتشوق إلى فرنسا.. كان يقول: «تلك كانت حياة متحضرة!» . وكان يقصد بذلك أنه كان قادرا من خلال دخل مالي ضئيل الاحتفاظ بزرية بيت وتناول الوجبات في المطاعم. وصب الطبيب لنفسه فنجانه الثاني من الشيكولاته، وكسر بين أصابعه بسكويتا حلوالمذاق. ورجع الخادم من البوابة إلى الباب المفتوح وظل واقفا في انتظار لكى يلحظه الطبيب.

فتساءل الطبيب: «ماذا فى الأمر؟».

إنه رجل هندى ضئيل. ومعه طفل رضيع.. وهو يقول أن الطفل قد لدغه عقرب.

فوضع الطبيب فنجانه فى شيء من الهدوء قبل أن يسمح للغضب بأن يتفجر في داخله.

ثم انفجر قائلا: «ليس لدي شيء أفضل من معالجة لدغات الحشرات التي تحدث للهنود التافهين؟.. انني طبيب بشرى ولست طبيبا بيطريا!» .

فقال الخادم: «نعم ياسيدى باترون».

فتساءل الطبيب: «ألديه أية نقود؟».. ثم استطرد: «بالطبع لا - فهم من الذين لايكون لديهم أية نقود في أي وقت على الاطلاق. ولذا - أنا الوحيد في العالم الذي يقترض في العمل بدون مقابل ولقد سمعت أنا تلك تماما. اذهب إليه وحاول أن تعرف منه ما إذا كانت لديه أية نقود!».

وعند البوابة فتح الخادم الباب فتحة ضيقة وأطل برأسه من فتحة الباب على الجماهير المحتشدة المنتظرة وفي هذه المرة تكلم الخادم باللغة القديمة:

- «ألديك نقود تدفعها ثمنا للعلاج؟».

وهنا وضع كيتو يده في مكان سري متوارى في مساحة ما تحت بطانيته. واستخرج ورقة مطوية طيات عديدة. وراح يفض التجاعيد - الواحدة تلو الأخرى - الموجودة بالورقة إلى أن ظهرت في نهاية الأمر ثماني لآلىء مشوهة وصغيرة للغاية بل وقبيحة

ورمانية مثل القرمات الضئيلة. والأكثر من ذلك أنها كانت مسطحة وعديمة الجدوى.

أخذ الخادم الورقة وأغلق البوابة مرة أخرى. إلا أنه لم يغب طويلا في هذه المرة. فسرعان ما فتح البوابة فتحة ضئيلة للغاية بحيث لا تسمح إلا بإعادة الورقة إلى صاحبها بالخارج. وقال:

- «لقد خرج الطبيب من المنزل. حيث تم استدعاؤه لعلاج حالة خطيرة»..

ثم أغلق البوابة بسرعة بسبب شعوره بالخجل!

وهنا سرت موجة من الشعور بالخجل والعار بين كافة الموجودين في الموكب. وتبدد الناس وذهب كل منهم إلى سبيله، ورجع الشحاذون إلى سلالم الكنيسة وتشتتت مجموعات الناس المنتشرة في غير نظام، ورحل الجيران لكي لا يشهدوا بعيونهم الخزي والعار الذي لحق بكينو.

وظل كينو واقفا لفترة طويلة أمام البوابة وظلت جوانا واقفة إلى جواره. وفي بطء وضع كينو قبعته فوق رأسه. ثم قام فجأة بتوجيه

ضربة ساحقة للبوابة بجماع يده . وبعدئذ نظر إلى أطفل في دهشة إلى المفاصل المشقوقة في أصابع يده وإلى الدماء التي انسابت بين أصابعه!

الفصل الثانى

كانت المدينة تقع على مصب نهر عريض واسع.. وكانت مبانيها القديمة الصفراء اللون المكسوة بالجص تعانق الشاطئ، وعلى الشاطئ كانت زوارق «الكنو» الطويلة الخفيفة والتى جاءت من «تاياريتي» مسحوبة إلى البلاج حيث توقفت. وهى زوارق قد تمت صيانتها والحفاظ عليها على مدى أجيال عديدة عن طريق جص ناشف مقاوم للماء شبيه بالمحارة، وهو جص كان إعداده بمثابة سر لا يعرفه سوى الناس المشتغلين بصيد السمك.

كانت زوارق الكنو عالية ورشيقة وبها إنحناء فى مقدمتها ومؤخرتها مع وجود جزء مقوى فى وسط الزورق حيث يمكن تثبيت الصارى الذى يحمل شراعا مثلث الشكل.

وكان الشاطيء رمالا صفراء اللون، ولكن عند حافة المياه كانت الأصداف المتكسرة والطحالب المائية تحل محل الرمال الصفراء. وكانت السرطانات العابثة تزغي وتزبد وتتدفق وتنبثق في ثقوبها بالرمال. وفي المياه الضحلة كان بعض جراد البحر يدخل ويخرج من بيوته الصغيرة الموجودة بين قطع الحجارة الصغيرة وفي الرمال.

- وكان قاع البحر زاخرا بالأشياء الزاحفة والعائمة والمتدفقة إلى حيز الوجود. كانت الطحالب المائية البنية اللون تموج مع التيارات المائية الهادئة. وكانت مراعي سمك «الجريث» تتمايل في ترنح بينما أفراس البحر الصغيرة تتعلق في سيقان تلك المراعي. وكان «سمك البونتيت المنقط» - وهو سمك سام - مستلقيا على القاع فوق الأعشاب الطحلبية، بينما سرطانات البحر السابحة الناصعة الألوان تجري فوقه.

وفوق الشاطيء كانت كلاب المدينة الهائمة وخنازير المدينة الجائعة ناشطة للبحث إلى ما لا نهاية عن أية سمكة ميتة أو أي طائر بحري ميت يكون قد طفى فوق الماء ثم ألقت به أمواج المد والجزر على الشاطيء.

ورغم أن الصباح كان ناشئا إلا أن السراب الضبابي كان عاليا. فالهواء المتقلب الذي يضخم بعض الأشياء ويخفي أشياء أخرى قد تعلق فوق الخليج بأكمله، حتى أن كافة المناظر كانت زائفة، وأصبح من المتعذر الثقة في الرؤية، حتى أن البحر والأرض كان لهما الوضوح الحاد والغموض الحاد مثلما يظهران في الأحلام. وربما كان هذا هو السبب في أن أهالي الخليج كانوا يثقون في الأشياء المتعلقة بالأرواح والأمور المتعلقة بالتخيل والخيال ولكنهم كانوا لا يثقون في عيونهم عندما تبين لهم المسافات أو الخطوط الخارجية الواضحة أو أية أمور بصرية بالغة الوضوح والدقة!

وعبر مصب النهر من جهة المدينة كان يقف قسم واحد من أشجار «المنجروف» (١) واضحا ومحددا تلسكوبيا. في حين أن مجموعة أخرى من تلك الأشجار كانت تبدو مثل مساحة ضبابية ملطخة باللون الأزرق الداكن. وكان جزء منخفض الساحل البعيد مختفيا في وميض فضي شبيه بالماء.

---

(١) المنجروف: شجر استوائي تنبثق من أغصانه جذور جديدة.

لم يكن هناك يقين في المشاهدة إذ لا يوجد برهان أو دليل يدل على أن ما شاهدته كان موجودا هناك أو غير موجود.. ولذلك كان كافة الناس بالخليج يتوقعون أن تكون جميع الأماكن على ذلك النحو، ولم يكن هذا أمرا غريبا عليهم. وتعلق ضباب نحاسي اللون فوق الماء وضربت شمس الصباح الساخنة فوقه وجعلته يحدث ذبذبات تخطف الأبصار.

وكانت المنازل المصنوعة من الأغصان والخاصة بالناس المشتغلين بصيد الأسماك تقع خلف الشاطئ، على الجانب الأيمن للمدينة وكانت زوارق «الكنو» تقف في مواجهة هذه المنطقة.

وذهب كينو وجوانا في بطء نحو الشاطئ، ثم إلى زورق «الكنو» الخاص بكينو والذي كان هو الشيء الوحيد القيم الذي يمتلكه في هذا العالم.. كان زورقا بالغ القدم. وكان جد كينو قد اشترى هذا الزورق من «ناياريت»، ثم أعطاه بعد ذلك لوالد كينو. ثم انتقلت ملكية القارب بعد ذلك إلى كينو. وأصبح على الفور من ممتلكات كينو ومصدرا للطعام لأن الرجل الذي يمتلك قاربا يمكن أن يضمن قدرا من الطعام لزوجته. فهو بمثابة الدعامة ضد

الهلاك جوعا. وفى كل عام كان كينو يعيد صيانة زورقه بالجبس الذي يشبه المحارة من حيث الصلابة مستخدما تلك الطريقة السرية التي تناقلت إليه عن طريق والده. ولقد ذهب في تلك الآونة إلى زورقه ولمس مقدمته في رقة مثلما كان يفعل دائما. ووضع صخرة الغطس الخاصة به والسلة الخاصة به والحبلين في الرمال بجوار الزورق. ثم طوى بطانيته ووضعها في المقدمة.

ووضعت جوانا ابنها كويوتيتو فوق البطانية. ثم وضعت شالها عليه لكي لا تسطع الشمس الساخنة فوقه. وكان كويو تيتو هادئا في تلك الآونة إلا أن الأورام الموجودة على كتفه كانت قد زحفت لأعلى إلى رقبته وتحت أذنه، ووجهه كان منتفخا ومحموما.. وذهبت جوانا إلى الماء ثم خاضت فيه. وراحت تجمع بعض الأعشاب البحرية البنية اللون وعملت منها لبخة مسطحة رطبة ثم وضعت اللبخة على كتف الطفل المتورم.. وهي لبخة كانت علاجا حسنا مثل أي علاج آخر بل ربما كانت أفضل من العلاج الذي كان سيقدمه الطبيب. إلا أن هذا العلاج كانت تنقصه موافقة الطبيب عليه لأنه كان بسيطا ولا يكلف أية تكاليف مالية.

ولم تكن التقلصات المعدية قد ظهرت على كويو تينو.. وربما كان السبب في ذلك أن جوانا قد امتصت السم في الوقت المناسب، إلا أنها لم تكن قد امتصت قلقها الشديد على أول مولود لها. ولم تكن قد أدت صلوات مباشرة من أجل شفاء طفلها الرضيع.. ولكنها كانت قد توسلت إلى الله لكي يتم العثور على لؤلؤة تستطيع بثمنها أن تستأجر طبيبا ليعالج طفلها الرضيع لأن عقول الناس لم تكن مدعمة بالدلائل والأسانيد مثل سراب الخليج.

ثم أنزل كينو وزوجته جوانا الزورق إلى المياه في انزلاق، وعندما طفت مقدمة الزورق هبطت جوانا إلى داخل الزورق بينما راح كينو يدفع مؤخرة الزورق ويخوض في الماء بجواره إلى أن طفا في خفة وارتعش فوق الأمواج. وبعدئذ بدأ كينو وجوانا يعملان في تناسق وهما يدفعان بمجاديفهما المزدوجة للنصل في البحر فأحدث الزورق طيات وتثنيات بالماء وأصدر فحيحا وصفيرا مع تصاعد سرعته. وكان رجال اللؤلؤ الآخرون قد انطلقوا منذ فترة. وفي خلال دقائق قليلة تمكن كينو من مشاهدتهم حيث كانوا متجمعين في السديم الضبابي ومنتشرين فوق مكان بقاع البحر تنمو فيه المحارات ذات الأصداف.

وتسرب الضوء إلى أسفل من خلال الماء إلى القاع حيث ترقد محارات اللؤلؤ ملتصقة بالقاع المليء بالأنقاض. وهو قاع تنتشر عليه أصداف بها محارات مكسورة ومفتوحة. لقد كانت هذه المساحة من قاع البحر هي التي جعلت ملك أسبانيا يصل إلى نفوذ هائل في أوروبا في السنوات الماضية، كما ساعدته على تسديد نفقات الحروب التي خاضها وعلى زخرفة الكنائس من أجل روحه.

والمحارات الرمادية بها تموجات خفيفة مثل الحواف فوق الأصداف. أما المحارات ذات القشرة الملتصقة بها قطع صغيرة من الأعشاب البحرية المتعلقة بالحواف والتي تتسلق عليها سرطانات صغيرة. وقد تتعرض هذه المحارات لحادثة، وقد ترقد حبة رمل بين طيات عضلة وتحدث توترا في اللحم، إلى أن يقوم اللحم بحماية نفسه فيغلف حبة الرمل بطبقة من الأسمنت الناعم. ولكن ما أن تبدأ هذه العملية حتى يستمر اللحم في تغليف الجسم الغريب إلى أن يسقط متحرراً في هبة فجائية من هبات المد والجزر أو إلى أن تنكسر صدفة المحارة ذاتها. وتنقد ظل الرجال

لعدة قرون يغوصون إلى قاع البحر ويمزقون المحارات في قاع البحر ويشقونها بقوة باحثين عن هبات الرمال المغلقة.. وكانت حشود الأسماك تعيش بالقرب من القاع حتى تكون قريبة من المحارات التي يلقي بها الرجال الباحثون عن اللؤلؤ ولكن تفترس وتقضم في الأصداف الداخلية اللامعة. ولكن اللآلىء كانت من قبيل المصادفات العارضة وكان العثور على لؤلؤة واحدة مسألة حظ سعيد أو مسألة تربيت بسيط على الظهر بمعرفة الله.

وكينو كان يمتلك حبلين، أحدهما مربوط في حجر ثقيل والآخر مربوط في سلة. وخلع كينو قميصه وبنطلونه ووضع قبعته في قاع الزورق. كانت المياه ناعمة ومغطاة بالزيت. وأخذ صخرته بإحدى يديه وأمسك سلته باليد الأخرى وانزلق بقدميه أولا على جانب الزورق فنزلت به الصخرة إلى القاع. وارتفعت الفقاقيع وراءه إلى أن أصبحت المياه صافية وأصبح بمقدوره الرؤية فيما حوله. وفوقه كان سطح الماء بمثابة مرآة متموجة من اللمعان ويتمكن من مشاهدة قاع الزوارق المتشبثة من خلالها.

وتحرك كينو في حرص وحذر لكي لا تتعكر المياه بالطين أو الرمال. وعلق قدمه في الأنشوطة الموجودة فوق صخرته ورلحت يداه تشتغلان بسرعة وتمزقان وتقصان المحارات التي كان بعضها منفرداً وقائماً بذاته، والبعض الآخر كان على شكل كوكبه متجمعة من المحارات. ويضع المحارات في سلته. وفي بعض الأماكن كانت المحارات ملتصقة مع بعضها البعض حتى أنها كانت تتدفق في يديه على هيئة كتل غير منتظمة الشكل.

وكان أهالي كينو يتغنون بكل شيء يحدث أو يصادفهم. وكانوا قد ألفوا أغنيات للأسماك وأغنيات للبحر في حالة الهياج وللبحر في حالة الهدوء والسكون.. وأغنيات للضوء والنور وأغنيات للظلام وأخرى للشمس والقمر.. وكانت الأغنيات كلها راسخة في داخل كيان كينو، وفي داخل كيان أهاليه.. تتردد كل أغنية قيلت بل وحتى الأغنيات التي طواها النسيان.

وعندما ملأ كينو سلته كانت الأغنية ماثلة في كيانه وكان إيقاع الأغنية هو دقات قلبه وهو يستهلك الأوكسجين من أنفاسه المتوقفة. وكانت ميلوديا الأغنية هي المياه الخضراء الرمادية،

والحيوانات الصغيرة المهرولة، وسحب الأسماك التي تهفهف إلى جواره وتنطلق بعيدا.. ولكن الأغنية كانت تتضمن أغنية داخلية صغيرة سرية، لا يمكن ادراكها إلا بصعوبة بالغة، ولكنها مع ذلك موجودة دائما، عذبة وسرية ومتشبثة وتكاد تكون مختفية في النغمة المضادة... وهذه كانت «أغنية اللؤلؤة المتضخمة التي ينبغي العثور عليها!» لأن كل صدفة تلقى في السلة قد تحتوى على لؤلؤة.

وكان كينو يدرك أن زوجته جوانا المنتظرة في الزورق الذي يعلوه تقوم بتراتيل السحر الخاص بالصلوات. وكان يدرك أن وجهها أصبح صارما وجامدا وأن عضلاتها أصبحت متصلبة وذلك في محاولة منها لارغام الحظ واستخلاصه من بين أيدي الآلهة لأنها كانت بحاجة للحظ من أجل كتف كويو تيتو المتورم!

ولأن الاحتياج كان هائلا، ولأن الرغبة كانت عارمة، فإن الميلوديا السرية الصغيرة للؤلؤة التي ينبغي أن تكون، كانت أشد قوة في هذا الصباح.. إذ تدفقت عبارات كاملة منها في وضوح ونعومة إلى داخل كيان «أغنية تحت سطح البحر».

كان بمقدور كيدو - من خلال عنفوانه وشبابه وافتخاره - البقاء في القاع تحت الماء لفترة تزيد على دقيقتين بدون الشعور بالاجهاد ولذلك فقد عمل بهدوء وتأني، وراح ينتقي ويختار الصدفات الكبيرة. ولأن صدفات المحارة قد تعرضت للازعاج فإنها كانت مغلقة في أحكام شديد. وعلى مسافة صغيرة إلى يمينه بدأت ربوة صخرية متهدمة في العزف الموسيقى.. شابة صغيرة ليست على استعداد للأمساك بها. فتحرك كيدو في اتجاه تلك الربوة.. وعندئذ شاهد إلى جوارها وتحت صخرة بارزة محارة ضخمة للغاية مستلقية بمفردها وغير مغطاة بشقيقاتها من المحارات الأخرى الصغيرة التي تلتصق عادة بالمحاراة الكبيرة.

وكانت تلك المحارة البالغة المتضخامة مفتوحة بعض الشيء لأن الصخرة البارزة كانت تحمي هذه المحارة القديمة. ومن داخل الصدفة التي تشبه الشفة شاهد كيدو تألقا طيفيا شبحيا، وبعدئذ أنهت المحارة البث والارسال. فراح قلبه يخفق في ايقاع ثقيل. ودوت نغمة «اللؤلؤة الضخمة» بصوت عال وحاد في أذنيه!

وفي بطء حزر المحارة وفك قيودها وأمسك بها في احكام على صدره . وركل بقدمه مخلصا ساقه من أنشوطة الصخرة فأرتفع جسده إلى سطح الماء وتلألأ شعره الأسود تحت ضوء الشمس. وارتفع بجسده فوق جانب الزورق وألقى بالمحارة الهائلة في قاع الزورق!

وبعدئذ راحت جوانا تتفحص الزورق بينما كان هو يتسلق صاعدا إليه. كانت عيناه تلمعان بالاثارة البالغة وتظاهرت هي بالنظر بعيدا. إذ لم يكن من الخير أن يطلب المرء شيئا أكثر من اللازم. لأن هذا يؤدي أحيانا إلى أبعاد الحظ في بعض الأحيان. ينبغي عليك أن تطلب الحظ بقدر كاف فقط وينبغي عليك أن تكون لبقا ودبلوماسيا مع الله. إلا أن جوانا حبست أنفاسها.. وفتح كينو سكينة القوى القصير عن عمد شديد. ونظر في تأمل إلى السلة. ربما من الأفضل له أن يفتح المحارة الضخمة بعد أن يفتح كل المحارات الصغيرة الأخرى.. فالتقط محارة صغيرة من السلة، وبحث عن طيات اللحم ثم ألقى بها في الماء. وبعدئذ بدا عليه كأنه يشاهد المحارة الضخمة لأول مرة. فجلس القرفصاء في قاع

الزورق والتقط المحارة الضخمة وراح يفحصها. كانت الصفر السطحية بها تلمع باللون الأسود المتدرج حتى اللون البني ولم يكن يتعلق بها سوى عدد قليل من الأصداف البحرية الصغيرة. وكان كيلو في تلك الآونة لا يرغب في فتحها. إذ كان يدرك أن ما شاهده ربما كان مجرد سطح عاكس للضوء أو ربما قطعة من الصدفة المسطحة قد انجرفت مع التيار بطريق المصادفة أو ربما كان الأمر كله وهماً كاملاً.. ففي هذا الخليج الذي تسوده الأضواء المتقلبة غير المتيقنة كانت الأوهام أكثر من الحقائق.

ولكن عينا جوانا كانتا مصوبتين عليه ولم يكن بمقدورها تحمل الانتظار. فوضعت يدها فوق رأس كويو تينو المغطى وقالت في نعومة وهدوء:

- افتحها!».

وفي حذق ومهارة انزلق كينو بسكينة على حافة المحارة.. واستطاع من خلال السكين الشعور بالعضلة وهي تشدد الغلق في احكام فاستخدم عتلة النصل فانفرجت العضلة الضامة وتنفسخت

العمارة. وتصاعد إلى أعلى النجم الذى يشبه الشفة ثم هبط. فرفع كينو النجم وهنالك كانت ترقد مستقبة اللؤلؤة العظيمة كاملة ورائعة مثل القمر.. واستحوذت على الضوء وهذبته وعكسته في توهج فضي!

كانت في نفس حجم بيضة طائر النورس. كانت أعظم لؤلؤة في العالم!!

وحبست جوانا أنفاسها وتأوهت قليلا. ودبت في كيان كينو النغمة السرية للؤلؤة العظيمة في وضوح وجمال. كانت نغمة خصيبة ونافذة ومحببة للنفس ومتوهجة ومثيرة تلهم الناظرين ومنتصرة.

وفوق سطح اللؤلؤة العظيمة كان باستطاعته مشاهدة الحلم وهو يتشكل ويتكون. فالتقط اللؤلؤة من طيات النجم المشرف على الموت ووضعها في راحة يده وقلبها وأدرك أن الانحناء بها ممتاز وكاملا.. واقتربت جوانا لكى تحملق في اللؤلؤة الموضوعة في راحة يده.

لقد كانت تلك اليد هي التي حطمها على بوابة الطبيب . وكان اللحم الممزق عند مفاصل أصابعه قد أخذ في التحول إلى اللون الأبيض الرمادي بفعل مياه البحر.

وبطريقة غريزية ذهبت جولنا إلى كويو تيتو حيث كان مستلقيا فوق بطانية والده . ورفعت اللبخة المكونة من الأعشاب البحرية ونظرت إلى الكتف ثم صاحت بصوت حاد «كينو».

فنظر إلى ما وراء لؤلؤته وأدرك أن الأورام بدأت في التلاشي من كتف الطفل الرضيع، وعرف أن السم أخذ في الانحسار عن جسده، ثم أطبقت يد كينو على اللؤلؤة العظيمة واجتاحته موجة عارمة من العاطفة. فألقى رأسه للخلف وانفجر في عواء عنيف!.. وتدحرجت عيناه إلى أعلى وراح يصرخ وأصبح جسده متصلبا. فنظر الرجال بالزوارق الأخرى إلى أعلى وأصابهم الدهشة ثم راحوا يجدفون بزوارقهم في البحر متجهين بأقصى سرعة نحو زورق كينو.

الفصل الثالث

المدينة شئ يشبه الحيوان الاستعمارى. والمدينة لها جهاز عصبى ولها رأس وكتفان وقدمان. والمدينة شئ منفصل عن كافة المدن الأخرى.. حتى أنه لا توجد هناك مدينتان متشابهتان. والمدينة لها عاطفة كاملة وإحساس كامل.

وكيفية انتشار الأنباء فى أرجاء المدينة يعتبر سرا ليس من السهل التوصل إلى حل له أو معرفته. إذ تبدو الأخبار وكأنها تتحرك بشكل أسرع مما يفعله الأولاد الصغار الذين يندفعون ويتدافعون ويتكلمون عنها، بل وأسرع مما تفعله النساء وهن يتبادلن الأخبار فوق الأسوار.

فقبل أن يصل كينو وجوانا وغيرهما من الصيادين الآخرين إلى منزل كينو المصنوع من أغصان الأشجار كانت أعصاب المدينة تخفق وتنبض بالأنباء.. لقد عثر كينو على لؤلؤة العالم.

وقبل أن يتمكن الأولاد الصغار اللاهثون من الافضاء بالكلمات كانت أمهاتهم قد عرفن الخبر، فالأنباء كانت قد اكتسحت المنازل المصنوعة من الأغصان، وتدفقت في موجة مليئة بالزبد إلى مدينة الأحجار والجبس. ووصلت الأنباء إلى القسيس الذي كان يسير في حديقته، فظهرت على عينيه نظرة مستغرقة في التفكير وقفزت إلى ذهنه اصلاحات معينة ضرورية للكنيسة. وسأل نفسه في تعجب: ترى ما هي القيمة المالية لهذه اللؤلؤة؟!

وسأل نفسه عما اذا كان قد قام بتعميد الطفل الرضيع لكينو أو اتخاذ اجراءات زواجه. ووصلت الأنباء إلى أصحاب المتاجر فنظروا إلى ملابس الرجال التي لم تحظ بالاقبال على شرائها.

ووصلت الأنباء إلى الطبيب حيث كان جالسا مع امرأة كان مرضها هو الشيخوخة، ولكنها لم تكن هي ولا الطبيب على استعداد للاعتراف بهذه الحقيقة.. وعندما أصبح من الواضح من هو كينو

ظهرت على وجه الطبيب سمات الجد والوقار والحكمة في آن واحد..

وقال: «انه زبون عندي».. واستطرد: «فلنا نقوم بمعالجة طفله من لدغة عقرب!»

واتسعت عينا الطبيب بعض الشئ في أرجوحاتهما الشبكية السميكة، وفكر في باريس. وتذكر الغرفة التي كان يعيش فيها هناك من حيث أنها كانت مكانا عظيما ومزودا بأسباب الترف والرفاهية وتذكر المرأة ذات الوجه الجامد والتي عاشت معه كفتاة جميلة وعطوفة... رغم أنها لم يكن لديها شئ من هذه الأمور الثلاثة. ونظر الطبيب إلى ما وراء مريضته العجوز فشاهد نفسه جالسا في مطعم بباريس بينما كان الجرسون يفتح له زجاجة من النبيذ..

ووصلت الأنباء مبكرة إلى الشحاذين الواقفين أمام واجهة الكنيسة، فأخذوا يضحكون ويقهقهون لبعض الوقت في شئ من السعادة، لأنهم كانوا يدركون أنه لا يوجد أي ولعب للصدقات في العالم، مثل رجل فقير هبط عليه الحظ والثراء فجأة!

لقد عثر كينو على «لؤلؤة العالم». وفي المدينة كان الناس الذين يشترون اللآلىء من الصيادين يجلسون في مكاتب صغيرة.. وكانوا ينتظرون في المقاعد والكراسي الخاصة بهم إلى أن تجيء إليهم اللآلىء، وبعدئذ يثرثرون في ضوضاء ويتشاجرون ويصرخون ويهددون إلى أن يصلوا إلى أقل سعر يمكن أن يتقبله الصيادون. ولكن كان هناك سعر معين بحيث لم تكن لديهم الجرأة على تخفيضه لأنه قد حدث ذات مرة أن قام أحد الصيادين. بعد أن شعر باليأس المرير بسبب تخفيض الأسعار أكثر من اللازم. بإعطاء اللآلىء الخاصة به للكنيسة.

وعقب انتهاء عملية الشراء كان هؤلاء المشترون يجلسون بمفردهم بينما أصابعهم تلعب باللآلىء في قلق وتوتر، حيث أنهم كانوا يتمنون لو كانوا يملكون بالفعل هذه اللآلىء. والسبب في ذلك أنه لم يكن هناك في الواقع مشترون عديدون. وانما كان هناك مشتري واحد فقط. وهذا المشتري الوحيد كان يحتفظ بهؤلاء العملاء في مكاتب منفصلة بهدف اعطاء المظهر الخارجي للمنافسة. ووصلت الأنباء إلى هؤلاء الرجال فراحت عيونهم تتغامز

وتنظر شزرا، وانقدت أطراف أصابعهم بمضى الشىء فى اشتعال، وراح كل منهم يفكر فى كيف أن صاحب هذه المؤسسة لا يمكنه أن يعيش للأبد، ولابد أن يحل محله شخص ما آخر. وراح كل منهم يفكر في كيف أنه باستطاعته أن يبدأ حياة جديدة اذا توفر لديه شئ من رأس المال.

وأصبح كافة أنواع الناس مهتمين بكينو.. الناس الذين لديهم أشياء للبيع والناس الذين يطلبون العون والمساعدة فى أمور معينة. لقد عثر كينو على لؤلؤة العالم. وترسب جوهر اللآلىء الممتزج بجوهر الرجال بالاضافة إلى ترسبات أخرى مظلمة بغيضة. اذ أصبح كل رجل على صلة بلؤلؤة كينو بشكل فجائى.. وتخللت لؤلؤة كينو فى الأحلام والتأملات والمشروعات والخطط والمستقبل، والرغبات والاحتياجات والتلهفات الشديدة والجوع لكل شخص.. ولكن هناك شخص واحد يقف حجر عثرة فى الطريق وذلك الشخص هو كينو حتى أنه قد أصبح بالفعل - وعلى نحو مثير للدهشة - عدوا لكل رجل!

وأثارت الأنباء شيئا ما أسود وشريرا إلى درجة لانهائية في المدينة. وكان النتاج المكثف لعملية التقطير السوداء يشبه العقرب أو يشبه الأحساس بالجوع عند شم رائحة الطعام أو يشبه الشعور بالاكتئاب والوحدة عندما يتم كبح جماح الحب!

وبدأت حبوب السم في المدينة في تصنيع السم والحقد.. فتورمت المدينة وانتفخت تحت وطأة السموم!

الا أن كينو وجوانا لم يعرفا هذه الأمور. ولأنهما كانا سعيدين وفي حالة من الاثارة البالغة فقد ظنا أن كل شخص آخر كان يشاركهما فرحتهما. وكان جوان توماس وزوجته أبولونيا يشاركانهما الفرحة، وكلتا همة بمثابة العالم أيضا. وفي فترة ما بعد الظهر عندما كانت الشمس قد غطت جبال شبه الجزيرة واتجهت نحو الغوص في البحر الخارجي، جلس كينو القرفصاء في منزله، بينما كانت جوانا تجلس إلى جواره. وكان المنزل المصنوع من الأغصان مزدحما بالجيران. وكان كينو ممسكا باللؤلؤة العظيمة في يده.. وكانت اللؤلؤة تموج بالدفء والحياة والحيوية..

وكانت موسيقى اللؤلؤة قد اندمجت مع موسيقى العائلة حتى أن كلا منهما كانت تضفى السحر والجمال على الاخرى. ونظر الجيران إلى اللؤلؤة الموجودة في يد كينو وتعجبوا: كيف يمكن أن يهبط مثل هذا الحظ الخرافي على أى رجل؟!

وتساءل جوان توماس الذى كان يجلس القرفصاء عند اليد اليمنى لكينو لأنه كان شقيقه: «ماذا ستفعل الآن بعد أن أصبحت رجلا غنيا».

فنظر كينو إلى لؤلؤته مليا، وألقت جوانا برموش عينيها لأسفل وركبت من شالها لكي تغطى وجهها حتى لا يلحظ أحد مدى التوتر والاثارة التى تجتاحها. وفي التوهج الحرارى للؤلؤة تكونت الصور للأشياء التي كان ذهن كينو قد فكر فيها في الماضي ثم توقف عن التفكير فيها على أساس أنها من الأمور التي يستحيل تحقيقها.

ففي داخل اللؤلؤة شاهد جوانا وكويو كينو وشاهد نفسه حيث كانوا يقفون ويركعون عند مذبح الكنيسة العالى وكانت تجرى اجراءات زواجهما طالما أصبح بمقدورها دفع تكاليف مراسم

الـزواج، فتكلم في صوت هادئ ورخيم وقال: سنتخذ اجراءات زواجنا في الكنيسة».

وفي داخل اللؤلؤة شاهد المدى التي وصلت اليه ملابسهم.. اذ شاهد جوانا مرتدية شالا مليئيا بعض الشيء بسبب أنه جديد تماما.. كما كانت مرتدية جونلة جديدة، ومن تحت الجونلة الطويلة أدرك كينو أنها كانت تلبس حذاء. كانت الصور متألقة هناك في داخل اللؤلؤة..

أما كينو نفسه فكان مرتديا ملابس بيضاء جديدة وكان يحمل قبعة جديدة.. وهي قبعة ليست مصنوعة من القش، وانما من اللباد الأسود الرقيق.. كما كان يلبس هو الآخر حذاء.. ليس صندلا ولكن حذاء يعقد برباط.

ولكن كويو تيتو كان هو الشخص الوحيد الذي يرتدي حلة بحار زرقاء مستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية.. كما يرتدي طاقية بحار صغيرة تماما على النحو الذي شاهده كينو من قبل عندما دخلت سفينة ملذات إلى مصب النهر.

كل هذه الأمور شاهدها كينو في اللؤلؤة الصافية الشفافة . ثم قال بصوت مسموع : «ولسوف تحصل على ملابس جديدة!» .

وتصاعدت موسيقى اللؤلؤة مثل كورس المنشدين في أذنيه .

وبعدئذ ظهرت على السطح السحب للنفس الرمادى اللون لؤلؤة الأشياء الصغيرة التى يريدها كينو: الحربون[1] ليحل محل الحربون الذى فقد منذ عام.. حربون جديد مصنوع من الحديد وبه حلقة فى نهاية قصبة الرمح . هذا بالاضافة الى - ووجد عقله صعوبة فى تحقيق هذه الوثبة - البندقية، ولكن ما المانع فى ذلك طالما أنه قد أصبح غنيا للغاية؟ ثم قام كينو بمشاهدة كينو فى داخل اللؤلؤة حيث كان كينو ممسكا ببندقية صغيرة ماركة ونشيستر. وكانت هذه اللقطة هى أكثر أحلام اليقظة جموحا كما كانت ممتعة للغاية . فتحركت شفتاه فى تردد وقال بصوت مسموع : «بندقية صغيرة» .. واستطرد «ربما بندقية صغيرة» .

(١) الحربون: وهو رمح لصيد الحيتان.

وكانت البندقية هي التي حطمت الحواجز. فهنا كان من الأمور المستحيلة وإذا كان باستطاعته التفكير في الحصول على البندقية فإن جميع الآفاق قد تفجرت وأصبح بمقدوره الهجوم عليها. لأنه يقال أن الآدميين لا يشبعون على الاطلاق. فإذا أعطيتهم شيئا ما فإنهم يرغبون في الحصول على المزيد من الأشياء الأخرى.

وكثيرا ما يقال هذا في شئ من الاستخفاف بالانسان والحط من قدره في حين أن هذا يعتبر من أعظم المواهب التي امتلكها الجنس البشري، لأنها هي التي جعلت الانسان متفوقا على الحيوانات التي تقنع بما لديها من أشياء.

وأوما الجيران المتلاصقون في صمت بالمنزل برؤوسهم لدى سماعهم تصوراته وخيالاته الجامحة. وتمتم رجل جالس في المؤخرة قائلا: «بندقية.. سيكون عنده بندقية!»

الا أن موسيقى اللؤلؤة كانت تدوى بالنصر في داخل كيان كينو. وارتفعت جوانا ببصرها إلى أعلى واتسعت عيناها بسبب

شجاعة كينو وخيالاته الجامحة.. وكانت قوة كهربائية قد هبطت عليه بعد أن تم زحزحة الآفاق. وفي داخل اللؤلؤة شاهد كويو تيتو جالسا إلى مكتب صغير في احدى المدارس، مثلما شاهد كينو ذلك المشهد ذات يوم من خلال باب مفتوح. وكان كويوتيتو مرتديا جاكتة وكانت له ياقة بيضاء ورباط عنق عريض من الحرير. وعلاوة على ذلك كان كويو تيتو يكتب على قطعة كبيرة من الورق. فنظر كينو إلى جيرانه في وحشية وقال: «وابني سيذهب الى المدرسة!»..

فهبط السكون المطبق على الجيران. وحبست جوانا أنفاسها بشدة. كانت عيناها تلمعان وهي تنظر اليه ثم نظرت بسرعة إلى أسفل نحو كويو تيتو المحمول بين ذراعيها لترى ما اذا كان هذا من الأمور الممكنة.

ولكن وجه كينو سطع بالنبوءة: «وابني سوف يقرأ ويفتح الكتب.. وابني سوف يكتب وسوف يعرف الكتابة.. وابني سيعرف الحساب والأرقام وهذه الأمور ستجعلنا أحرارا لأنه سوف يعرف.. هو سوف يعرف.. ومن خلاله سنعرف نحن!».

وفي داخل اللؤلؤة شاهد كينو نفسه وجوانا وهما جالسين القرفصاء بجوار النيران الصغيرة بالكوخ المصنوع من الأغصان في حين كان كويو تيتو يقرأ في كتاب ضخم. وقال كينو: «وهذا هو ما ستفعله اللؤلؤة له».

لم يسبق لكينو أن قال مثل هذه الكلمات العديدة في وقت واحد طوال حياته على الإطلاق. وفجأة بدأ يشعر بالخوف من كلامه الكثير.. فأطبقت يده على اللؤلؤة فانقطعت الأضواء المتلألئة المنبعثة عنها. كان كينو خائفا مثل خوف الرجل الذي يقول: «أنا سوف أعمل كذا وكذا». بدون أن يدري ماذا ستسفر عنه الأمور!

وفي تلك اللحظة أدرك الجيران أنهم قد شهدوا أعجوبة عظمى. وأدركوا أن التاريخ سيؤرخ له ابتداء من لؤلؤة كينو.. وأنهم سيتناولون هذه اللحظة الخالدة بالمناقشة على مدى السنوات العديدة القادمة. فإذا كانت هذه الأمور قد جاءت لتمر وتنقضي فإنهم سيحكون ويقصون مرارا وتكرارا ويصفون منظر كينو في تلك اللحظة الخالدة والأقوال التي قالها واللمعان الذي سطع في عينيه ولسوف يقولون: «كان رجلا متغير المظهر والهيئة. فقد

هبطت عليه بعض القوى وهنالك بدأت. وها أنتم ترون كم أصبح رجلا عظيما ابتداء من تلك اللحظة. وأنا قد شاهدت ذلك بنفسي!»

وإذا أسفرت خطط كينو عن لا شيء فإن نفس أولئك الجيران قد يقولون: «هنالك بدأ ذلك الأمر. فقد هبط عليه جنون سخيف حتى أنه راح يتكلم ويقول كلاما سخيفا. وليحفظنا الله من مثل هذه الأمور. نعم. لقد عاقب الله كينو لأنه ثار على الأوضاع السائدة. وأنتم ترون بأنفسكم ما حدث له. وأنا بنفسي قد شاهدت اللحظات التي فقد فيها رشده وصوابه وعقله!!».

ونظر كينو نحو يده المغلقة وكانت مفاصل أصابع يده مليئة بالدماء المتجلطة على هيئة قشرة ومشدودة في الأماكن التي ارتطمت بالبوابة.

وبدأ الشفق الأحمر يزحف على المكان في تلك الآونة. وعقدت جوانا شالها على هيئة أنشوطة تحت طفلها الرضيع حتى يمكنه أن يتعلق على منصل فخذها.. ثم ذهبت إلى حفرة النيران وكشفت عن الفحم الموجود بين الرماد ثم راحت تكسر أغصانا

قليلة وتضعها فوق الفحم. وأخذت تهوى على النيران إلى أن تصاعدت ألسنة اللهيب.

وتراقصت ألسنة اللهب الصغيرة فوق وجوه الجيران. وكان الجيران يدركون أنه ينبغي عليهم أن ينصرفوا لكي يتناولوا وجبات العشاء الخاصة بهم ولكن لم تكن لديهم الرغبة في الانصراف.

كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله إلى حد ما.. وكانت نيران جوانا تلقي بالظلال فوق الحوائط المصنوعة من القش عندما صدر بعض الهمس متراميا من فم إلى فم: «الأب القسيس قادم.. القسيس قادم». فكشف الرجال عن رؤوسهم وتراجعوا عن الباب وثبت السيدات الشال حول وجوههن وألقين بحصرهن إلى أسفل.

ونهض كينو واقفا كما وقف شقيقه جوان توماس ودخل القسيس إلى المكان.. رجل أشيب يميل إلى الكبر في السن وذو بشرة قديمة وعين شابة حادة. كان ينظر إلى هؤلاء الناس على أنهم مجرد أطفال. وكان يعاملهم معاملة الأطفال.

قال القسيس في صوت رقيق: «يا كيندو أنت قد سميت باسم رجل عظيم.. وقسيس عظيم للكنيسة!».

وجعل تلك العبارة تبدو وكأنها بركة قد منحت لكيندو. واستطرد قائلا: «والشخص الذي يحمل نفس اسمك قد روض الصحراء وجعلها أكثر ألفة.. وجعل عقول أهاليك أكثر حلاوة.. هل تعرف ذلك؟ أن هذه المعلومات موجودة في الكتب!».

فنظر كيندو إلى أسفل نحو رأس كويو لينو الذي كان منحنيا فوق فخذ جواثا. وقال له عقله أن ذلك الولد سيعرف في يوم ما الأشياء التي كانت موجودة بالكتب والأشياء الأخرى التي لم تكن موجودة بها.

وكانت الموسيقى قد خرجت من رأس كيندو ولكن بدأت تذب في تلك اللحظة في خفوت ربطه نغمة الصباح وموسيقى الشر وموسيقى العدو، الا أنها كانت خافتة وضعيفة.. فنظر كيندو إلى جيرانه لكي يعرف من الذي جلب هذه الأغنية إلى هذا المكان.

إلا أن القسيس كان يتحدث مرة أخرى فقال: «لقد قيل لي أنك قد عثرت على ثروة هائلة . عثرت على لؤلؤة عظيمة!» .

ففتح كينو يده وأظهرها للعيان . فشهق القسيس قليلا لدى رؤيته اللؤلؤة الجميلة ذات الحجم الكبير . وقال: «آمل أن تتذكر أنه ينبغي عليك يا بني أن تقدم الشكر لله سبحانه وتعالى الذي منحك هذا الكنز .. وأن تصلي لله لكي يسدد خطاك ويلهمك الارشاد مستقبلا» .

فأومأ كينو برأسه في صمت أبكم . وكانت جوانا هي التي تكلمت في رقة : «سنفعل ذلك أيها الأب القسيس . ولسوف نتزوج الآن!» .

ثم نظرت إلى جيرانها لكي يقروا ذلك فأومأوا برؤوسهم في جد ووقار .

فقال القسيس : «انه لمن دواعي السرور أن أرى أن أفكارهم الأولية هي أفكار حسنة . بارك الله فيكم يا أطفالي» .

ثم استدار وغادر المكان في هدوء وأفسح الناس له الطريق .

الا أن يد كينو أطبقت فى احكام مرة أخرى على اللؤلؤة وبدأ ينظر نظرات سريعة فيما حوله فى شيء من الشك لأن أغنية الشر بدأت تدب فى أذنيه وراحت تدوى فى عنف متضاد مع موسيقى اللؤلؤة.

وبدأ الناس ينزلقون منصرفين إلى منازلهم وجلست جوانا القرفصاء بجوار النيران ووضعت اناءها الفخارى الخاص بالفول المغلى فوق ألسنة اللهب الصغيرة. وخطا كينو خطوة إلى المدخل ونظر إلى خارج المنزل. وكما يحدث دائما كان باستطاعته أن يشم رائحة الدخان المتراميه من النيران العديدة كما كان بمقدوره مشاهدة النجوم المحاطة بضباب رقيق مع الاحساس برطوبة هواء الليل، حتى أنه غطى أنفه ليحمى نفسه من الرطوبة. وجاء الكلب النحيل اليه وهز نفسه محييا مثل علم تذروه الرياح، فنظر كينو نحوه ولم يشاهده بوضوح. وكان قد اخترق الأفاق نحو البرد ومشاعر الوحدة بالخارج. ودبت فى أوصاله مشاعر الوحدة والاكتئاب وشعر أنه بدون حماية.

وبدا على الصراصير الزاحفة وضفادع الأشجار لعادة الصوت وضفادع الجبال السامة التي تدق بصوتها الأجش وكأنها جميعا تعمل نغمة أغنية الشر.. وارتعد كينو وجذب بطانيته في مزيد من الأحكام حول أنفه. وكان يحمل اللؤلؤة في يده وقد أطبق عليها في مزيد من الأحكام في راحة يده وكانت دافئة وناعمة على بشرة يده.

وخلفه سمع جوانا وهي تردد على الفطائر قبل أن تضعها فوق لوحة الطهي الصلصالية. وأحس كينو بكل دفء وأمن عائلته خلفه وجاءت أغنية العائلة من ورائه مثل تعزيم قطة صغيرة. ولكنه الآن ومن خلال قوله ماذا سيكون عليه مستقبله، قد خلق مستقبله.. فالخطة هي شئ حقيقي والأشياء التي توضع لها خطط تدخل في نطاق التجربة. والخطة ما أن يتم وضعها وتخطيها حتى تصبح حقيقة شأنها شأن باقي الحقائق الأخرى.. لا تتعرض للدمار على الاطلاق ولكن يسهل تعرضها للهجوم. ولذلك فان مستقبل كينو كان أمرا حقيقيا ولكنه ما أن شيد مستقبله حتى انطلقت قوى أخرى لتهدم هذا المستقبل.. وهذه حقيقة كان يدركها تماما حتى أنه كان عليه أن يستعد لمواجهة الهجوم.

وكان كيتو يدرك أيضا هذه المعلومة: وهي أن الآلهة لا تحب خطط الرجال وأن الآلهة لا تحب النجاح إلا إذا جاء بطريق المصادفة. كان يدرك أن الآلهة تنتقم من الانسان إذا حقق نجاحا من خلال جهوده الخاصة. ولذلك فقد كان كيتو خائفا من الخطط، ولكن نظرا لأنه قد وضع بالفعل خطة فإنه لم يكن بمقدوره على الاطلاق تدميرها. ولكي يواجه كيتو الهجوم فإنه شرع بالفعل في خلق بشرة صلبة لنفسه في مواجهة العالم. وراح ذهنه وعيناه تسبران الأغوار بحثا عن المخاطر قبل ظهورها.

وبينما كان واقفا عند فتحة الباب شاهد رجلين يقتربان. كان أحدهما يحمل فانوسا يضيء الأرض ويسبق الرجلين. وانطلقا إلى داخل تلك الفتحة الموجودة بالسور الخاص بكيتو ووصلا إلى بابه.. وأدرك كيتو أن أحدهما كان هو الطبيب والآخر هو الخادم الذي فتح البوابة في الصباح. وعندما عرف كيتو شخصيتهما اشتعلت مفاصل أصابع يده اليمنى المشقوقة.

قال الطبيب: «لم أكن موجودا بمنزلي عندما جئت إلي في هذا الصباح، ولكني قد جئت لك الآن مع أول فرصة سانحة لي لأكشف على الطفل الرضيع».

فظل كبتو واقفا وقد سد فتحة الباب بينما الكراهية تحتدم وتشتعل في مؤخرة عينيه، والخوف أيضا، لأن مئات السنين من الاخضاع والاستعباد قد أحدثت جرحا غائرا في داخل كيانه.

فقال في اقتضاب: «الطفل الآن في حالة جيدة تقريبا».

فابتسم الطبيب ولكن عينيه لم تبتسما.

وقال: «أحيانا ياصديقي تكون للدغة العقرب آثار غريبة. اذ يحدث أحيانا تحسن ظاهري وبعدئذ وبطريقة فجائية تماما..» بوف إك وضم شفتيه وأحدث انفجارا مدويا بعض الشئ لكي يبين له كيف يمكن أن يحدث ذلك الأمر بسرعة كبيرة ثم غير من مكان حقيبته الطبية السوداء الصغيرة لكي يسقط عليها ضوء المصباح لأنه كان يدرك أن الجنس البشرى الخاص بكينو يحب آلات وأدوات أي صنعة ويثقون فيها. واستمر الطبيب قائلا في نغمة لطيفة: «أحيانا ينجم عن لدغة العقرب ساق ذابلة أو عين مكفوفة أو ظهر متحدب. أوه، فأنا ياصديقي أعرف لدغة العقرب وأستطيع أن أعالجها».

وأحس كينو بالغضب والكراهية وهما يتراجعان ويذويان أمام الخوف. فهو لم يكن يعرف وربما كان الطبيب يعرف. ولم يستطع أن يضع جهله الأكيد في مواجهة المعرفة المحتملة لهذا الرجل. لقد نصبت له الشراك مثلما وقع أهاليه دائما في المصايد ولسوف يظلون كذلك إلى أن يتأكدوا من أن الأشياء الموجودة بالكتب كانت موجودة بالفعل في الكتب مثلما قال ذلك من قبل.

لم يكن باستطاعته أن يقامر. فالمقامرة لا تكون مع الحياة أو مع استقامة كويو تيتو. فوقف على جانب مفسحا مكانا وسمح للطبيب وللرجل بالدخول إلى كوخه المصنوع من الأغصان.

نهضت جوانا واقفة وتركت النيران وتراجعت للوراء بعيدا عندما دخل الطبيب إلى الكوخ وغطت وجه الطفل الرضيع بحاشية شالها. وعندما اتجه الطبيب إليها باسطا يده، أمسكت بطفلها في إحكام ونظرت إلى كينو الذي كان واقفا بينما ظلال النيران تقفز على وجهه.

أومأ كيلو برأسه، وعندئذ فقط سمحت جوانا للطبيب بأن يأخذ الطفل الرضيع.

وقال الطبيب: «امسك الفانوس».. وعندما رفع الخادم الفانوس إلى راح الطبيب ينظر للحظات إلى الجرح الموجود فوق كتف الطفل. وظل يفكر لحظات قليلة وبعدئذ قلب جفن عين الطفل ونظر إلى مقلة العين. ثم أومأ برأسه بينما كان كوينو تيتو يقاومه.

وقـال: «الأمر كما توقعت. فقد تغلغل السم إلى داخل الجسم وسرعان ما سيضرب ضربته. تعالى وانظر بنفسك!».. وأمسك بجفن العين وقال: «انظر.. أنه أزرق اللون».. فنظر كينو في قلق وأدرك أن جفن العين يميل إلى اللون الأزرق بعض الشيء. ولم يكن يعرف ما اذا كان ذلك اللون الأزرق الخفيف موجودا دائما في جفن عين الطفل من عدمه الا أن الفخ قد نصب. ولم يكن بمقدوره أن يغامر.

وامتلأت عينا الطبيب بالدموع وقال: «سأعطيه شيئا ما في محاولة لطرد السم من جسده!». ثم أعطى الطفل لكينو.

واستخرج من حقيبته زجاجة صغيرة بها مسحوق أبيض وكبسولة جيلاتين. وملأ الكبسولة بالمسحوق ثم أغلقها. ثم ملأ كبسولة ثانية بالمسحوق وأغلقها ثم راح يعمل في رشاقة شديدة. وأمسك بالطفل الرضيع وقرص شفته السفلى إلى أن فتح فمه. ووضعت أصابعه الممتلئة الكبسولة إلى الداخل بعيدا فوق لسان الطفل، بعيدا في مكان بحيث لا يمكنه أن يبصق المسحوق ثم التقط من فوق الأرض الإبريق الصغير المليء بعصير الهالكة ليعطي كويو تيتو جرعة من ذلك العصير، وتم انجاز الأمر. ثم نظر مرة أخرى إلى مقلتي عيني الطفل الرضيع وبعدئذ زم شفتيه وبدا عليه كأنه يفكر.

وفي نهاية الأمر أعاد الطفل إلى جوانا ثم التفت إلى كينو وقال: «أعتقد أن السم سوف يهاجمه في ساعة». واستطرد: «والدواء قد ينقذ الطفل من الأذى ولكني سأجيء اليكم في خلال ساعة. وربما أكون قد جئت في الوقت المناسب لكي أنقذه». ثم أخذ نفسا عميقا وسار خارجا من الكوخ فتبعه خادمه ممسكا بالفانوس.

والآن كانت جوانا قد وضعت الشال تحت طفلها وراحت تحملق فيه في قلق وخوف. وجاء إليها كينو ورفع الشال وحملق في الطفل الرضيع. وحرك يده لكي ينظر تحت جفن العين وعندئذ فقط أدرك أن اللؤلؤة كانت لاتزال موجودة في يده. وبعدئذ اتجه إلى صندوق بجوار الحائط وأحضر منه قطعة صغيرة من القماش البالي. وغلف اللؤلؤة في الخرقة البالية ثم ذهب إلى ركن المنزل المصنوع من الأغصان وحفر حفرة بأصابعه في الأرضية القذرة ووضع اللؤلؤة في الحفرة وغطاها وأخفى المكان. وبعدئذ ذهب إلى نيران حيث كانت جوانا تجلس القرفصاء وترقب وجه الطفل.

وبعد أن عاد الطبيب إلى منزله استقر في كرسيه ونظر إلى ساعته. وأحضر له أهاليه عشاء بسيطا يتكون من الشيكولاته والكعك العطر المذاق والفواكه. وحملق هو في الطعام في استياء.

وفي منازل الجيران بدأ التطرق إلى الموضوع الذي سيتسيد كافة المناقشات والمحادثات لفترة طويلة.

راح الجيران يتحدثون مع بعضهم البعض، ويرى بعضهم كيف أن اللؤلؤة كانت ضخمة للغاية، مستخدمين أصابع الأبهام للتعبير عن ذلك وكانوا يقومون ببعض حركات التدليل والمداعبة ليعبروا عن مدى جمال اللؤلؤة. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا كانوا سيرقبون كينو وجوانا مراقبة وثيقة ليروا ما اذا كانت الثروات والغنى قد أثارت رأسيهما مثلما تدير الثروات رؤوس كافة الناس.

كان كل شخص يدرك السبب الذي جعل الطبيب يجيئ بنفسه إلى الكوخ. لم يكن الطبيب لبقا في اظهار النفاق، ولذلك فقد فهم الجميع حركاته جيدا.

وفي الخارج عند المصب الخليجي للنهر تلألأ سرب من الأسماك الصغيرة المنسوج باحكام وحطم المياه لكي يهرب من سرب من الأسماك الكبيرة المندفعة لكي تأكلها.. وفي داخل المنازل كان باستطاعة الناس سماع الطرطشة الواثبة الخاصة بالأسماك الكبيرة مع استمرار مجزرة القتل والذبح.. وتصاعدت الرطوبة من الخليج وترسبت فوق الشجيرات ونباتات الصبار وفوق الأشجار الصغيرة على هيئة قطرات مالحة وزحفت قطرات الليل هنا

وهناك فوق الأرض، وراحت صغور الليل الصغيرة تصطاد الفئران وتأكلها في صمت.

وجاء الكلب الصغير النحيف الأسود اللون والذى له نقاط بلون الشهب فوق عينيه إلى باب كينو وألقى نظرة إلى داخل المنزل. وكاد الكلب أن يخلع الجزء الخلفى من جسده بسبب كثرة الاهتزاز عندما ألقى كينو نظرة خاطفة عليه ثم هدأت توتراته عندما أشاح كينو ببصره بعيدا.

لم يدخل الكلب المنزل الا أنه راح يرقب في اهتمام محموم بينما كان كينو يأكل الفول من الوعاء الفخارى الصغيرة ويمسح الوعاء تماما بفطيرة من القمح، ثم يأكل الفطيرة، ثم يدفع أخيرا بالمأكولات إلى داخل جوفه بأن تناول جرعة من شراب البلكة.

وانتهى كينو من تناول الطعام وبينما كان يلف سيجارة سمع جوانا تنادى عليه في حدة «كينو».. فنظر اليها نظرة عاجلة، ثم نهض واقفا وذهب اليها بسرعة لأنه شاهد الرعب ماثلا في عينيها، ووقف إلى جوارها وراح ينظر بامعان الا أن الضوء كان

محكما للغاية. فركل بقدمه كومة الأغصان ملقيا بها إلى حفرة النيران لكي يحدث اشتعالا. وعندئذ تمكن من مشاهدة وجه كويو تينو. كان وجه الطفل محتقنا باللون الأحمر، وكان حلقه يتحرك واللعاب الكثيف ينساب من شفتيه. لقد بدأت تشنجات عضلات المعدة وأصبح الطفل الرضيع في حالة من المرض الشديد.

وركع كينو بجوار زوجته وقال: «إذن كان الطبيب يعرف ذلك».. ولكنه قال هذه العبارة لنفسه مثلما قالها لزوجته، لأن عقله كان ناشفا وصلبا وشكاكا.

وراحت جوانا تتمايل من جانب لآخر وتتغنى في أنين بأغنية العائلة الصغيرة كما لو كان ذلك سيؤدي إلى إزالة الأخطار، وتقيأ الطفل وتلوى بين ذراعيها وعندئذ دب عدم اليقين في داخل كيان كينو. وخفتت موسيقى الشر في رأسه وكادت تطرد أغنية جوانا.

وانتهى الطبيب من تناول كوب الشيكولاته وراح يقضم القطع الصغيرة المتساقطة عن الكعكة الحلوة المذاق. ثم مسح أصابعه بفوطة سفرة صغيرة ونظر إلى ساعة يده ونهض وأمسك حقيبته الصغيرة.

وانتشرت أنباء مرض الطفل الرضيع بسرعة بين المنازل المصنوعة من الأغصان، لأن المرض يعتبر العدو الثاني للناس الفقراء أما عدوهم الأول فهو الجوع.

وقال بعض الناس في هدوء: «ان العطاء كما ترون، يجلب معه الأصدقاء الودودين». وأومأوا برؤوسهم ونهضوا لكي يتوجهوا إلى منزل كينو.. وهرول الجيران مسرعين وقد غطوا أنوفهم عبر الظلام إلى أن تجمهروا في منزل كينو مرة أخرى. ووقفوا وحملقوا وأدلوا بتعليقات قليلة عن الحزن الذي يقتحم نفسه عادة في أوقات البهجة والسعادة. وقالوا: «كل شئ بإرادة الله».

وجلست النساء المسنات القرفصاء بجوار جوانا في محاولة لتقديم المساعدة لها أن أمكن ومواساتها في حالة عدم التمكن من مساعدتها.

وبعدئذ دخل الطبيب مسرعا إلى المنزل ودخل خادمه وراءه. وبعثر الطبيب النساء المسنات مثلما يبعثر الدواجن. وأمسك بالطفل وفحصه وتحسس رأسه. وقال: «لقد عمل السم مفعوله». واستطرد:

واعتقد ان بامكاني هزيمة السم والقضاء عليه. سأبذل كل ما في وسعي».

وطلب أن يحضروا له ماء. ووضع في فنجان من الماء ثلاث قطرات من الامونيا وفتح فم الطفل الرضيع وصب في فمه الماء، ربتيق الطفل وغمغم وأطلق صرخات الذعر والألم أثناء معالجة الطبيب بينما كانت جوانا ترقبه بعينين مليئتين بالقلق الشديد.

وتكلم الطبيب قليلا أثناء تأديته لعمله، قال: «من حسن الحظ أنني أعرف كل شئ عن سم العقارب والا.........» وهز كتفه ليوضح ماذا كان يمكن أن يحدث.

الا أن كينو كان مليئا بالشك. ولم يستطيع أن يبعد عينيه عن حقيبة الطبيب المفتوحة وعن زجاجة المسحوق الأبيض الموجودة هناك. وهدأت التشنجات تدريجيا واسترخى الطفل تحت يدي الطبيب. ثم تنهد كويو تينو في عمق واستسلم للنوم لأنه كان مرهقا بسبب القئ.

ووضع الطبيب الطفل الرضيع في يدي جوانا وقال: «سوف يتحسن الآن». واستطرد: «لقد كسبت المعركة» فنظرت إليه جوانا في امتنان وتقديس.

وكان الطبيب آخذ يغلق حقيبته. وقال: «متى ستستطيع دفع قيمة هذه الفاتورة على ما أظن؟» وقال تلك العبارة في شيء من العطف والحنان.

«سأدفع لك أجرك بعد أن أبيع اللؤلؤة»..

فتساءل الطبيب في اهتمام: «ألديك لؤلؤة؟ أهي لؤلؤة جميلة؟»

وعندئذ جاء صوت الجيران مثل الكورس. قالوا صائحين: «لقد عثر على لؤلؤة العالم». وضموا إصبع الابهام ليعبروا عن الحجم الكبير للؤلؤة. وقالوا في اصطخاب: «انها لؤلؤة لم يشاهد أحد مثيلا لها».

وتظاهر الطبيب بأنه يشعر بالدهشة البالغة وقال: «انني لم أسمع عن هذا الخبر. وهل أنت تحتفظ بهذه اللؤلؤة في

مكان أمين؟ ولربما تكون لديك الرغبة في أن أضعها لك في خزينتي؟».

كانت عينا كينو محجبتين في تلك الآونة فكانت وجنتاه مشدودتين في احكام. وقال: «أنني أضعها في مكان آمن» وأضاف: «ولسوف أبيعها غدا وبعدئذ أقدم لك أجرك وأسدد مستحقاتك».

فهز الطبيب كتفيه في لامبالاة ولم تترك عيناه المليئتان بالسؤال عيني كينو على الاطلاق. كان يدرك أن اللؤلؤة ربما تكون مدفونة في المنزل وأعتقد أن كينو ربما ينظر تجاه المكان الذي دفنت فيه اللؤلؤة.

وقال الطبيب: «انه لمن العار أن تضيع اللؤلؤة قبل أن تتمكن من بيعها». وعندئذ شاهد عيني كينو وهما ترفرفان بسرعة وبشكل لا ارادي نحو أرضية المكان بالقرب من العمود الجانبي للمنزل المصنوع من القش.

وبعد أن انصرف الطبيب وانصرف كافة الجيران وعادوا إلى منازلهم بدون أن تكون لديهم الرغبة في ذلك، جلس كينو

القرفصاء بجوار قطع الفحم الصغيرة المتوهجة في حفرة النيران وراح يصغي لصوت الليل وصوت الاكتساح الهادئ المترامي عن الأمواج الضئيلة على الشاطئ وصوت الكلاب النابحة من مسافة بعيدة .. وزحف النسيم خلال سقف المنزل المصنوع من الأغصان، كما تراءت إلى سمعه الأصوات الخافتة المنبعثة من جيرانه القابعين بمنازلهم بالقرية. لأن أولئك الناس لا ينامون نوما عميقا طوال فترات الليل، فهم يستيقظون على مراحل ويتحدثون قليلا ثم يلجأون للنوم مرة أخرى. وبعد مرور بعض الوقت نهض كينو واقفا وذهب إلى باب منزله.

وراح يشم النسيم ويصغي لأي صوت غريب من أصوات الزحف والتخفي.. وراحت عيناه تفتشان في الظلام لأن موسيقى الشر كانت تدق في رأسه فأصبح متأرجا ومفترسا وخائفا. وبعد أن سبر أغوار الليل بكافة حواسه اتجه إلى المكان الموجود بجوار العمود الجانبي والذي دفن فيه اللؤلؤة وراح يحفر واستخرج اللؤلؤة وأحضرها إلى حصيرة نومه وتحت حصيرة النوم راح يحفر حفرة أخرى في تراب الأرضية ثم دفن لؤلؤته وغطاها بالتراب مرة أخرى.

وأخذت جوانا الجالسة بجوار حفرة النيران ترقبه بعيون متسائلة. وبعد أن انتهى من دفن اللؤلؤة تساءلت: «من هو الذي نخاف منه؟»

وبحث كينو في ذهنه عن اجابة صادقة ثم قال أخيرا: «أخاف من كل شخص». وكان يشعر بصدفة من الصلابة تقترب منه وتطبق عليه.

وبعد انقضاء بعض الوقت استلقى مع زوجته فوق حصيرة النوم. ولم تضع جوانا الطفل الرضيع في صندوقه في تلك الليلة وانما وضعته في مهد بين ذراعيها وغطته بشال رأسها. وانطفأ الضوء الأخير للجمرات في حفرة النيران.

الا أن ذهن كينو كان يتحرق ويشتعل حتى أثناء النوم وشاهد في الحلم أن كويو تيتو يعرف القراءة ورأى في الحلم أن أحد أهاليه يستطيع أن يعرف حقيقة الأشياء. وفي الحلم الذي شاهده، كان كويو تيتو يقرأ في كتاب ضخم وكبير مثل المنزل والحروف في نفس حجم الكلاب والكلمات تجرى وتعدو وتلعب فوق الكتاب.

وبعدئذ انتشر الظلام فوق الصفحة ومع الظلام تصاعدت موسيقى الشر مرة أخرى. وتحرك كينو في قلق أثناء نومه. وعندما تحرك فتحت جوانا عينيها في الظلام. وبعدئذ استيقظ كينو بينما موسيقى الشر تنبض في داخل كيانه وظل مستلقيا في الظلام بينما كانت أذناه في حالة تيقظ شديد.

وبعدئذ ومن ركن المنزل ترامى صوت خافت للغاية حتى أنه بدا وكأنه مجرد فكرة. حركة مختلسة صغيرة لمسة قدم فوق التراب، خرخرة تنفس متضبطة لا تكاد تسمع. وكتم كينو أنفاسه وراح يصغي، وكان يدرك أنه اذا كان هناك شخص ما متوارى تحت طيات الظلام فلابد أن يكون هو الآخر قد حبس أنفاسه لكي يصغي أيضا!

ومر بعض الوقت دون أن يترامى أي صوت على الاطلاق من ركن المنزل المصنوع من الأغصان. وربما كان كينو قد اعتقد عندئذ أنه تخيل سماع الصوت الا أن يد جوانا جاءت زاحفة فوقه لتحذره وعندئذ ترامى الصوت مرة أخرى: همس قدم فوق الأرض الجافة وخربشة أصابع في التربة.

وهنا ماج صدر كينو بخوف مسعور. وجاء الغضب بعد الخوف مثلما كان يحدث له دائما. وزحفت يد كينو إلى داخل صدره حيث كانت المدية الخاصة به معلقة في حبل ويعدئذ قفز مثل قط غاضب. قفز ضاريا باصقا وغاضبا في اتجاه الشئ الأسود الذي كان يبدو متحركا في ركن المنزل. وأحس بقماش وطعن القماش بسكينه ولكنه أخطأ ولم يصب الهدف فطعن مرة أخرى وشعر بسكينه وهي تخترق القماش وبعدئذ تحطمت رأسه وومض بريق في ذهنه وتفجرت رأسه بآلام شديدة. وكان هنالك عدو وجري سريع وخافت عند المدخل ووقع أقدام تجري لبعض الوقت ثم ساد الصمت المطبق.

وشعر كينو بدماء دافئة تسيل من جبهته. وكان بمقدوره سماع جوانا وهي تنادي عليه «كينو اكينو!» وكان هنالك رعب شديد في صوتها. وبعدئذ هبط عليه هدوء وبرود شديد بسرعة كبيرة وبنفس السرعة التي هبط بها الغضب عليه. ثم قال: «انني على ما يرام. لقد انصرف ذلك الشئ».

وتلمس طريقه عائدا إلى حصيرة النوم وكانت جوانا قد شرعت في العمل في النيران. فكشفت عن الجمرات وأزاحت عنها الرماد ومزقت قطعا صغيرة من قشور القمح فوق النيران، ونفخت إلى أن تصاعدت ألسنة صغيرة من اللهب في قشور القمح فتراقص ضوء خافت في أرجاء الكوخ. وعندئذ أحضرت جوانا من مكان سري قطعة صغيرة من شمعة مكرسة لغرض نبيل وأشعلتها عند اللهب ووضعتها في اعتدال فوق حجر خاص بالموقد. وراحت تعمل بسرعة وتدندن وتغني بصوت رقيق خفيض لدى تحركها هنا وهناك. وغمست طرف شال رأسها في الماء وشرعت في مسح الدماء من فوق جبهة كينو المصابة بالجروح والكدمات.

وقال كينو: «الجروح بسيطة للغاية».. إلا أن صوته كان واهنا، وكانت عيناه متحجرتين وخاليتين من العاطفة. وكانت الكراهية والكآبة تتصاعدان في داخله.

والآن فإن التوتر الذي كان قد أخذ في التكون في داخل كيان جوانا بدأ يغلي ويفور ويظهر على السطح وأصبحت شفتاها

رقيمتين. وصاحت في حدة: «هذا الشيء هو الشر».. واستطردت: «وهذه اللؤلؤة تشبه الخطيئة! انها ستؤدى إلى تدميرنا!... ثم ارتفع صوتها في مزيد من الحدة: «ألقي بها بعيدا ياكينو. تخلص منها. هيا بنا نحطمها بين الحجارة هيا بنا ندفنها في مكان وننسى ذلك المكان. هيا بنا نلقيها في البحر. فقد جلبت علينا الشر. ياكينو يازوجي العزيز انها ستلحق بنا الدمار» وتحت ضوء النيران كانت شفتاها وعيناها متقدة مع خوفها.

الا أن وجه كينو كان جامدا وعقله مصمما وإرادته عنيدة. قال: «هذه هي فرصتنا الوحيدة. وينبغي أن يذهب أبننا إلى المدرسة. وينبغي أن يخرج من الوعاء الذى يحتوينا في داخله».

فصرخت جوانا: «انها ستحطمنا نحن جميعا».. واستطردت: «بل وستحطم ابننا».

فقال كينو: «التزمي بالصمت. لا تقولي أي كلام آخر. سنبيع اللؤلؤة في الصباح وعندئذ سيكون الشر قد ذهب إلى غير رجعة. ولا يتبقى حينئذ الا الخير. والآن اسكتي يازوجتي!».

ونظرت عيناه السوداوان في عبوس إلى النيران الصغيرة.. ولأول مرة يدرك أن سكينه مازالت موجودة في يديه فرفع نصل السكين ونظر إليه وشاهد خطا رفيعا من الدماء فوق ذلك الجزء الفولاذي من السكين. وكان على وشك أن يمسح الدماء من نصل السكين في بنطلونه ولكنه غير رأيه وغمس السكين في التراب وتم التنظيف بهذه الطريقة.

وبدأت الديوك الثانية في الصباح وتغير الهواء، وبدأ الفجر يدب في الكون. وعكرت رياح الصباح المياه عند مصب النهر، وهمست بين أشجار المنجروف الاستوائية، وضربت الأمواج الصغيرة فوق الشاطئ الملئ بقطع الحجارة في ايقاع متزايد. ورفع كينو حصيرة النوم وحفر في الأرض واستخرج اللؤلؤة ووضعها أمامه وحملق فيها.

وراحت اللؤلؤة الجميلة تتغامز وتلمع وتتلألأ تحت ضوء الشمعة فأحدث جمالها نوعا من الخداع في داخل ذهن كينو. كم كانت جميلة للغاية ومحببة للنفس. ورقيقة للغاية وكانت الموسيقى الخاصة بها تنبعث من داخلها.. موسيقى بشائر النجاح والبهجة والسعادة وضمان المستقبل والراحة والأمن والأمان.

كان اشراقها الدافئ وشفافيتها النافذة هي كمادات ضد المرض، وهي حائط منيع ضد الاهانة وهي قد أغلقت بابا لن يدخل منه الجوع.

وبينما كان كيدو يحملق في اللؤلؤة فترت عيناه واسترخى وجهه. وكان باستطاعته مشاهدة الصورة الصغيرة للشمعة المكرسة منعكسة على السطح الرقيق للؤلؤة وسمع في أذنيه مرة أخرى الموسيقى الحبيبة الخاصة بما هو تحت سطح البحر، ونغمة الضوء الأخضر المنتشر الغامض بقاع البحر، وبينما كانت جوانا تراقبه سرا رأته وهو يبتسم ولأنهما كانا على نحو ما كيانا واحدا وهدفا واحدا فقد ابتسمت معه.

وافتتحا هذا اليوم بالأمل،

الفصل الرابع

الطريقة التي تراقب بها أية مدينة صغيرة نفسها بالإضافة إلى مراقبة كافة الوحدات التابعة لها تعتبر من الأمور المثيرة للدهشة. فلو أن كل رجل وكل امرأة وكل طفل صغير يتصرف ويرشد نفسه في نطاق نموذج معروف، ولا يحطم أية حوائط، ولا يثير خلافات مع أحد، ولا يدخل في تجربة، ولا يكون مريضا ولا يعرض للخطر هدوء العقل أو سلامة الذهن أو التدفق السلس الثابت للمدينة، عندئذ فإن تلك الوحدة يمكن أن تختفي ولا يسمع عنها على الإطلاق.

ولكن دع رجلا واحد يخرج عن الفكر المألوف، أو عن النموذج المعروف والموثوق فيه، عندئذ فإن أعصاب رجال المدينة تدوى

وتفور بالقلق والتوتر وتتناقل الرسالة الشفوية عبر خطوط أعصاب المدينة عندئذ تجري كل وحدة اتصالاتها مع الكيان الكلي.

ولذلك ففي مدينة «لاباز» أصبح من المعروف في الصباح الباكر في جميع أرجاء المدينة أن كينو سيبيع لؤلؤته العظيمة في ذلك اليوم. وكان ذلك معروفا بين الجيران في الأكواخ المصنوعة من الأغصان وبين صيادي اللآلئ وكان معروفا بين أصحاب محلات البقالة الصينيين. وكان معروفا في الكنيسة لأن أولاد هيكل الكنيسة كانوا يتهامسون عن هذا الموضوع. بل ووصلت أنباء عن هذا الموضوع إلى الراهبات، كما تكلم الشحاذون الواقفون أمام الكنيسة في هذا الموضوع لأنهم سيحصلوا على جزء من ضريبة العشور (١) من أولى ثمار هذا الحظ السعيد. وكان الأولاد الصغار يعرفون أيضا ويشعرون بالإثارة البالغة. وفوق كل ذلك كان المشترون للآلئ يعرفون الخبر.

---

(١) ضريبة العشور: طبقا لقانون التوراة.

وعندما جاء اليوم جلس كل رجل مسئول عن مكاتب المشترين للآلئ بمفرده مع الصينية الصغيرة المصنوعة من القطيفة السوداء الخاصة به، وراح كل رجل يدحرج اللآلىء هنا وهناك بطرف أصبعه ويفكر في دوره في هذه الأعمال التجارية.

كان من المفروض أن يكون المشترون للؤلؤ بمثابة أفراد يعمل كل منهم مستقلا عن زميله ويضاربون ويزايدون ضد بعضهم البعض من أجل الحصول على اللؤلؤ الذي يحضره الصيادون. وكان الأمر يسير على ذلك النحو ذات يوم. الا أن هذه الطريقة كانت تؤدى إلى تبذير الكثير الأموال، لأنه غالبا ما كانت تدفع أموال هائلة للغاية للصيادين بسبب المزايدة على لؤلؤة جميلة. فكان هذا تبذيرا يتعذر مقاومته. أما الآن فليس هناك سوى مشترى واحد للؤلؤ ولديه العديد من المندوبين العاملين عنده، ولذلك كان الناس الجالسون إلى مكاتبهم وينتظرون مجيئ كينو اليوم، يعرفون الثمن الذي سيعرضونه عليه ويعرفون مدى الارتفاع الذي سيصلون اليه في السعر عند المزايدة، ويعرف كل واحد منهم للوسيلة التى سيستخدمها.

وبرغم أن هؤلاء الرجال لا يكسبون شيئا بخلاف مرتباتهم، الا أنه كانت هناك مشاعر الاثارة التي تدب بين المشترين للؤلؤ، لأنه كانت هنالك اثارة في الصيد، فاذا كانت مهمة رجل أن يعمل على تخفيض السعر، فانه لابد أن يشعر بالبهجة والارتياح الشديد اذا تمكن من تخفيض السعر إلى آخر حد ممكن. لأن كل شخص في العالم يعمل على قدر طاقته، ولا أحد يفعل أقل من قصارى جهده بغض النظر عن وجهة نظره في الأمور، وبغض النظر عن أية مكافأة يمكنهم الحصول عليها، وبغض النظر عن أية كلمة مديح وعن أية ترقية، فان مشترى اللؤلؤ هو مشترى للؤلؤ وأفضل وأحسن وأسعد مشترى للؤلؤ هو ذلك الذي يقاتل من أجل الوصول بالسعر إلى أقل سعر ممكن.

كانت الشمس صفراء ساخنة في ذلك الصباح فسحبت الرطوبة من مصب النهر ومن الخليج وعلقتها في سحابات ترمض بلمعان خفيف في الهواء، حتى أن الهواء كان يتذبذب، وكانت الرؤية غير واضحة. وتعلقت رؤية في الهواء إلى الشمال من المدينة... الرؤية الخاصة بجبل كان يقع على مسافة تزيد على ٢٠٠ ميل، وكانت

المنحدرات العالية لهذا الجبل مزدانة بأشجار الصنوبر، وكانت قمته الحجرية الهائلة ترتفع فوق خط الأشجار.

وكانت القوارب في صباح هذا اليوم ترقد في صف فوق الشاطئ لأنه لم يخرج الصيادون لكي يقوموا بأعمال الغطس بحثاً عن اللؤلؤ، لأن الأحداث ستكون هائلة حيث سيتمكن المرء من مشاهدة أمور كثيرة عندما يذهب كينو ليبيع اللؤلؤة الهائلة!

وفي المنازل المصنوعة من الأغصان المتناثرة بجوار الشاطئ جلس جيران كينو لفترة طويلة وهم يتناولون طعام الافطار، وتحدثوا عما كانوا سيفعلونه لو أنهم هم الذين عثروا على اللؤلؤة. فقال أحد الرجال أنه كان سيقدمها كهدية للأب المقدس في روما. وقال آخر أنه سيشتري قداسات لأرواح عائلته على مدى ألف سنة.. وقال آخر أنه سيأخذ النقود ويوزعها على أهالي الفقراء في مدينة «لاباز». والشخص الرابع فكر في كافة الأمور الطيبة التي يمكن أن يفعلها المرء بالنقود التي يحصل عليها من وراء بيع اللؤلؤة. فكر في كافة أنواع الصدقات والاحسان، وكافة المنافع وجميع حالات الانقاذ التي يمكن أن يقوم بها المرء اذا كان لديه

نقود. وتمنى كافة الجيران ألا تدير الثروة المفاجئة رأس كينو، وتمنوا ألا تجعل منه رجلا غنيا، وتمنوا ألا تزرع في كيانه أعضاء شريرة: مثل الشراهة والكراهية والفتور.. لأن كينو كان رجلا محبوبا من الجميع ومن العار أن تدمر اللؤلؤة شخصيته المحبوبة. وقالوا: «وتلك الزوجة الممتازة جوانا.. وذلك الولد الجميل كويوتيتو وغيره من الأطفال الآخرين الذين سيجيئون فيما بعد فهؤلاء جميعا لذا حطمتهم اللؤلؤة سيصبح ذلك أمرا يدعو للرثاء والأسف الشديد!».

وبالنسبة لكينو وجوانا كان هذا هو أهم صباح في حياتهما. ولا يمكن أن يقارن إلا باليوم الذي ولد فيه الطفل. كان هذا سيصير اليوم الذي تأخذ عنه كافة الأيام الأخرى ترتيبها. فيقولان مثلا: «لقد حدث هذا قبل أن نبيع اللؤلؤة بعامين» أو يقولان: «لقد حدث هذا بعد أسبوعين من بيع اللؤلؤة».

وبعد أن تدبرت جوانا ذلك الأمر ألقت بتحذيراتها للرياح وألبست كويوتيتو الملابس التي كانت قد أعدتها من أجل تعميده عندما تتوفر النقود اللازمة لتعميده. ومشطت جوانا شعرها

وضفرته وربطت النهايات بعقدتين من الشريط الأحمر، كما أرتدت جونلة زواجها وصديرية زواجها.

وكانت الشمس قد ارتفعت لربع المسافة عندما أصبحا جاهزين. أصبحت ملابس كينو الممزقة البالية البيضاء نظيفة في نهاية الأمر، وكان هذا هو آخر يوم يشهد الملابس الرثة التي يرتديها، لأنه سيحصل على ملابس جديدة في صباح اليوم التالي أو ربما في نفس مساء ذلك اليوم.

وكان الجيران الذين يرقبون باب كينو من خلال الشقوق الموجودة في منازلهم المصنوعة من الأغصان قد ارتدوا هم أيضا ملابسهم وأصبحوا على أهبة الاستعداد أيضا. لم يكن هناك شعور بالخجل من ذهابهم مع كينو وجوانا للذاهبين لبيع اللؤلؤة. كان ذلك أمرا متوقعا. كانت تلك لحظة تاريخية، ومن السخف والجنون عدم الذهاب في هذه المناسبة حيث سيدل ذلك على عدم وجود الصداقة والمودة.

وارتدت جولدا شال الرأس الخاص بها في حرص وعناية ،
وجعلت طرفاً واحداً طويلاً تحت مرفق ذراعها الأيمن وجمعته
بيدها اليمنى لكي تتدلى أرجوحة شبكية تحت ذراعها، ووضعت
كوبيو تيتو في هذه الأرجوحة الصغيرة وجعلته مستنداً على شال
الرأس حتى يتمكن من مشاهدة كل شيء على أمل أن يتذكر فيما
بعد.. ووضع كينو على رأسه قبعة القش الكبيرة الخاصة به
وتحسسها بيده ليتأكد من أنها قد وضعت بطريقة صحيحة، وأنها
ليست متزلقة قليلاً إلى خلف رأسه أو جانب رأسه مثل رجل متهور
طائش غير متزوج وغير مسئول، وليتأكد أيضاً من أنها ليست
مسطحة ومنبطحة مثلما يرتديها الرجال الأكبر سناً، وإنما مرفوعة
قليلاً إلى الأمام لكي تعبر عن العدوانية والجدية والقوة.. فهناك
أمور كثيرة يمكن مشاهدتها في درجة ميل القبعة فوق رأس
الرجل.

وانزلق كينو بقدميه في صندله وجذب السيور الجلدية لأعلى
فوق كعبيه. وكانت اللؤلؤة العظيمة ملفوفة في قطعة قديمة لينة من
جلد الغزال وموضوعة في حافظة نقود جلدية صغيرة، وحافظة

النقود موضوعة في جيب بقميص كيتو. وطوى بطانيته في حرص وجعل بها ثنيات على هيئة شريط ضيق فوق كتفه الأيسر وعندئذ أصبحا جاهزين لمغادرة المنزل.

وخطا كيتو خارجا من المنزل في وقار وتبعته جوانا حاملة كويونيتو. وبينما كانا يسيران في الزقاق في اتجاه المدينة انضم إليهما الجيران. إذا كانت المنازل تقذف بالناس من جوفها، كما كانت أفنية المنازل تمتلئ الأطفال. ولكن نظرا لجدية وخطورة هذه المناسبة الهامة فقد سار مع كيتو رجل واحد فقط هو شقيقه جوان توماس.

وراح جوان توماس يحذر أخاه ويلفت نظره وقال له: «ينبغي أن تكون حريصا وتتأكد بنفسك من أنهم لا يخدعونك أو يغشونك».

فوافق كينو على ذلك وقال: «ينبغي فعلا أن أكون في غاية الحرص».

وقال جوان توماس: «نحن لا نعرف ما هي الأسعار التي يدفعونها في الأماكن الأخرى. وكيف يمكن لنا أن نعرف أن السعر

الذي يعرضونه مناسب أم لا، انا كنا لانعرف ما الذي يحصل عليه مشتري كثمن لها في مكان آخر؟»

فقال كينو: «هذا صحيح». واستطرد: «ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف؟ فنحن موجودون هنا. ونحن لسنا هناك».

وبينما كانوا يسيرون في اتجاه المدينة تزايد الجمهور وراءهم واستمر جوان توماس في للتحدث في توتر وعصبية شديدة. قال: «قبل أن تولد ياكينو فكر الناس العجائز في وسيلة لكي يحصلوا على مزيد من النقود ثمنا للؤلؤ الخاص بهم. واعتقدوا أنه من الأفضل لهم أن يكون لهم وكيل أو مندوب بحيث يأخذ معه كافة اللآلىء الى العاصمة ويبيعها هناك ويأخذ لنفسه نصيبه من الأرباح فقط».

فأومأ كينو برأسه وقال: «أعرف ذلك. لقد كانت فكرة ممتازة»

فقال جوان توماس: «ولذلك عثروا على رجل ليكون مندوبا عنهم وجمعوا اللآلىء وأعطوها له وأطلقوه الى العاصمة. ولم يعد أحد يعرف عنه أية أخبار على الاطلاق وضاع اللؤلؤ الى

الأبد.. وبعد ذلك عهدوا بهذه المهمة الى رجل آخر وأطلقوه إلى العاصمة ولم يسمع أحد أية أنباء عنه بعد ذلك على الاطلاق . ولذلك فقد تراجعوا عن هذه الفكرة تماما وعادوا إلى الطريقة القديمة» .

وقال كيني: «أعرف ذلك . فلقد سبق لي أن سمعت والدنا يحكي هذه القصة . لقد كانت فكرة طيبة ولكنها كانت ضد الدين ولقد أوضح الاب القسيس ذلك تماما . فضياع اللؤلؤة كان بمثابة عقاب أنصب على أولئك الذين حاولوا ترك موقعهم . وأوضح الاب القسيس أن كل رجل وكل امرأة هو بمثابة جندي كلفه الله بحراسة جزء ما من قلعة الكون والبعض موجودون في المتاريس والاستحكامات والبعض الآخر على أعماق بعيدة في الغياهب المظلمة للحوائط . الا أن كل واحد ينبغي عليه أن يظل مخلصا لموقعه ولايجب عليه أن يجرى هنا وهناك وذلك لكي لاتتعرض القلعة للأخطار الناجمة عن الهجوم الذى تقوم به جهنم!» .

فقال جوان توماس: «لقد سمعته وهو يلقي هذه الموعظة في الكنيسة» واستطرد: «فهو يلقي نفس هذه الخطبة في كل عام» .

وبينما كان الشقيقان يواصلان المسير راحا ينظران بعينين نصف مغمضتين مثلما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم على مدى ٤٠٠ عام منذ أن جاء الغرباء لأول مرة ومعهم الجدل والبراهين والنفوذ والسلطة والبارود .. وفي خلال الأربعمائة عام لم يتعلم أهالي كيلو سوى دفاع واحد فقط.. تضييق خفيف في العينين، وزم خفيف في الشفتين، واللجوء إلى الاعتزال أو الخلوة. ولم يكن بمقدور أي شئ تحطيم هذا الحائط، وتمكنوا من البقاء سالمين في داخل الحائط.

كان للموكب المحتشد يسوده الوقار والهيبة لأنهم كانوا يشعرون بأهمية ذلك اليوم. وعندما كان يحاول أي أطفال اظهار الميل للمشاجرة أو الصراخ بصوت عال أو سرقة التبعات أو نكش الشعر كان آباؤهم وأقرباؤهم يهمسون لهم فيسارعون للالتزام بالصمت.

كان ذلك اليوم بالغ الأهمية حتى أن رجلا عجوزا جاء ليشهد الأحداث وهو راكب فوق كتفي ابن أخيه..

وتخطى الموكب الأكواخ المصنوعة من الأغصان ودخل إلى نطاق المدينة المشيدة بالأحجار والجص حيث كانت الشوارع أكثر اتساعا بعض الشيء وحيث كانت هناك أرصفة ضيقة بجوار المباني .

ومثل ما حدث من قبل انضم إليهم الشحاذون لدى مرورهم أمام الكنيسة ونظر إليهم البقالون لدى مرورهم بجوار محلات البقالة ، وفقدت الصالونات العامة زبائنها وأغلق أصحاب المحلات دكاكينهم وانضموا للموكب ، ورلحت الشمس تضرب بحرارتها فوق شوارع المدينة وحتى الحجارة الصغيرة كانت تلقي بالظلال فوق الأرض !

وكانت أنباء اقتراب الموكب تجري أمامه . وفي المكاتب المظلمة بعض الشيء كان يجلس المشترون للؤلؤ في تصلب وتخشب وفي مزيد من اليقظة ، وكانوا قد استخرجوا أوراقا حتى يمكنهم البدء في العمل لدى ظهور كينو أمامهم ووضعوا اللؤلؤ الخاص بهم في المكاتب لأنه ليس من الحكمة أن يجعلوا اللآلىء ذات المستوى الأقل تظهر أمام وجود لؤلؤة عظمى مثل التي

سيحضرها كينو. وكانت الأنباء عن الجمال الهائل للؤلؤة كينو قد وصلت اليهم.

وكانت مكاتب المشترين للؤلؤ متجمعة مع بعضها في شارع واحد ضيق. وكانت نوافذ تلك المكاتب بها حواجز من القضبان الحديدية، وكانت الشرائط الخشبية للنوافذ تحجب الضوء بحيث لايدخل الى المكاتب سوى عتمة خفيفة.

وجلس رجل قوى بطيئ الحركة في احدى هذه المكاتب منتظرا. كان وجهه يفيض بالحنو الأبوى والشفقة والرحمة. وكانت عيناه تومضان بالصداقة. وكان دائب التحية بتعبير «صباح الخير» ومصافحا للأيادي بطريقة رسمية. وكان رجلا مرحا يعرف جميع النكات المضحكة. ومع ذلك كان أقرب الى الحزن والاكتئاب لأنه وهو في عز الضحك يمكن أن يتذكر وفاة عمتك وتمتلئ عيناه بالدموع أسفا على الفقيدة وعلى الخسارة التي أصابتك.

وفي هذا الصباح كان قد وضع زهرة في فازة على مكتبه. زهرة واحدة من الفيبيزة القرمزية. والفازة كانت قايمة بجوار

صبغية اللؤلؤ المبطنة من الداخل بالقطيفة والموجودة أمامه . وكان قد حلق ذقنه تماما بحيث لم يظهر من لحيته سوى الجذور الزرقاء ، وكانت يداه نظيفتين وأظافر أصابعه مهذبة ولامعة ، واستند بابه المفتوح لاستقبال الصباح ، وراح يدندن بصوت متقطع بينما كانت يده اليمنى تمارس لعبة « خفة اليد السحرية » . إذ كان يدحرج عملة معدنية جيئة وذهابا فوق مفاصل أصابع يده بحيث يجعلها تظهر وتختفي ويجعلها تلف وتدور وتتلألأ .

كانت العملة ترمض متجلية ثم تختفي بنفس السرعة التي ظهرت بها . بل ولم يكن الرجل يراقب يده وهو يقدم هذا العرض المثير . إذ كانت أصابعه تؤدي هذا العمل بشكل آلي وفي دقة بالغة بينما كان هو يدندن لنفسه ويحدق ببصره في الشارع من خلال فتحة الباب .. وعندئذ ترامى إلى سمعه صوت وقع الأقدام الخاصة بالجمهور الآخذ في الاقتراب فاشتغلت أصابع يده اليمنى في مزيد من السرعة إلى أن تألقت واختفت العملة المعدنية لدى ظهور قوام كينو عند فتحة الباب .

قال الرجل القوي : « صباح الخير يا صديقي » . واستطرد : « ماذا يمكنني أن أفعله . من أجلك ؟ »

فحملق كينو في العتمة التي تسود ذلك المكتب الصغير لأن عينيه كانتا مشدودتين بسبب توهج الأضواء بالخارج. الا أن عيني المشتري كانت قد أصبحت ثابتة وقاسية وغير رامشة على الاطلاق مثل عيني الصقر بينما كانت باقي أعضاء وجهه تبتسم في تحية له.. وراحت يده اليمنى تلعب بالعملة في سرية تامة خلف مكتبه.

قال كينو: «لدي لؤلؤة». ووقف جوان توماس خلفه وأصدر قدرا من الشخير بسبب العبارة التي قالها كينو والتي تعطي فكرة أقل مما تتضمنه الحقيقة. وراح الجيران يحتشدون حول المدخل وتسلق الأولاد الصغار على قضبان النوافذ وأخذوا يحملقون في الداخل وبدأ العديد من الأولاد الصغار يمشون على أيديهم وأرجلهم ليراقبوا الموقف من بين ساقي كينو.

قال التاجر: «أنت لديك لؤلؤة». واستطرد: «في بعض الأحيان يحضر لي أحد الرجال ستة من اللآليء. حسنا. دعنا نشاهد اللؤلؤة الخاصة بك. ولسوف نقيم سعرها ونعطيك أفضل ثمن لها»..

وراحت أصابعه تنشغل في نشاط محموم مع العملة المعدنية.

والآن كان كينو يدرك بطريقة غريزية التأثيرات الدرامية الخاصة به. فلى بطء أخذ يستخرج الحافظة الجلدية وراح يستخرج منها قطعة جلد الغزال القذرة وبعدئذ سمح للؤلؤة العظيمة بالتدحرج الى الصينية المبطنة بالقطيفة السوداء. وعلى الفور رمقت عيناه وجه التاجر. ولكن وجه التاجر لم تظهر عليه أية علامات ولا أية حركة ولا أى تغيير. الا أن اليد السرية خلف المكتب افتقدت الدقة المتناهية التى كانت تتميز بها. لذا تعثرت العملة المعدنية فوق أحد مفاصل اصبعه وانزلقت في صمت الى حجر التاجر. وعندما خرجت اليد اليمنى من مخبأها لمس اصبع السبابة اللؤلؤة الهائلة العظيمة ودحرجها فوق القطيفة السوداء والتقطها باصبع الابهام واصبع السبابة وقربها من عينيه وراح يديرها فى الهواء.

وكتم كينو انفسه وكتم الجيران أنفاسهم. وتناقل الهمس الى الوراء عبر الجمهور المحتشد: «أنه يقوم بفحصها الآن.. ولم يتم تحديد أي سعر حتى الآن.. لم يتفقوا على سعر معين»

وكانت يد التاجر قد أصبحت أنئذ شخصية كاملة .. ودفعت اليد اللؤلؤة العظمى الى الصينية مرة أخرى وراح اصبع السبابة يلكز اللؤلؤة ويقلل من شأنها ثم ظهرت على وجه التاجر ابتسامة حزينة تميل الى الازدراء.

وقال: «آسف يا صديقي!» بينما ارتفعت كتفاه قليلا ليشير الى أنه ليس مسئولا عن سوء الحظ.

قال كينو: «انها لؤلؤة ذات قيمة عظمى»فركلت أصابع التاجر للؤلؤ في ازدراء حتى أنها وثبت وقفزت مرة أخرى في نعومة من جانب الصينية المبطنة بالقطيفة.

وقال التاجر: «هل سمعت عن الذهب الوهمي؟ ان هذه اللؤلؤ تشبه الذهب الكاذب وهي كبيرة للغاية. ومن ذا الذي سيشتريها؟؟ اذ لايوجد سوق لمثل هذه الأشياء. فهي ليست سوى تحفة نادرة غريبة. انني لآسف. لقد اعتقدت أنت أنها شيء له قيمة ولكنها ليست سوى تحفة نادرة غريبة!!.

وهنا ظهر القلق والارتباك والهم على وجه كيتو وصـــرخ قائلا: «انها لؤلؤ العالم». واستطرد: «ولم يسبق لأحد في العالم أن شاهد مثلها على الاطلاق».

فقال التاجر: «على العكس من ذلك.. انها كبيرة الحجم وغير ملائمة. انها تشد الانتباه من حيث هي تحفة نادرة وربما تأخذها احدى المتاحف بهدف وضعها في مجموعة المعروضات من المحارات البحرية وباستطاعتي أن أقدم لك ألف بيزو ثمنا لها».

فاكفهر وجه كيتو وأصبح ناكدا ومائجا بالخطورة وقال: «ان ثمنها ٥٠ ألف بيزو.. وأنت تعرف ذلك.. وأنت تريد أن تغشني وتخدعني».

وسمع التاجر زمجرة خفيفة تسرى في كيان الجماهير المحتشدة لدى سماعهم السعر الذي نطق به.. وشعر التاجر برعشة خوف.

فقال على وجه السرعة: «لاتلقي باللوم على فأنا لست سوى مثمنا، اذهب واسأل التجار الآخرين اذهب الى مكاتبهم

واعرض عليهم لؤلؤتك.. أو الأفضل من ذلك دعهم يحضرون الى هنا لكي تتأكد بنفسك أنه لايوجد أي تواطؤ أو أية مؤامرة. ثم نادى: أيها الولد، وعندما نظر خادمة من الباب الخلفي استطرد: أيها الولد. اذهب الى تاجر لؤلؤ ثم اذهب الى تاجر ثان وتاجر ثالث وأطلب منهم جميعا أن يحضروا الى هنا بدون أن تذكر لهم السبب في ذلك. قل لهم فقط أنه يسعدني أن يشرفوني بالحضور الي. ثم اتجهت يده اليمنى الى خلف المكتب وانتزعت عملة معدنية أخرى من جيبه فراحت العملة تتدحرج للخلف وللأمام فوق مفاصل أصابعه.

أخذ جيران كينو في التهامس مع بعضهم البعض. لقد كانوا يخشون من حدوث شئ كهذا. فاللؤلؤة كانت كبيرة ولكن كان بها لون عجيب. ولقد شكوا في أمرها منذ البداية. وبرغم كل ذلك فان مبلغ الألف بيزو لاينبغي رفضه. فهو يعد بمثابة ثروة بالنسبة لرجل غير ميسور الحال. وانا أخذ كينو الألف بيزو فهو الكاسب لأنه بالأمس فقط لم يكن لديه أية نقود على الاطلاق

الا أن كينو قد ازداد صلابة وتحجرا. كان يشعر بزحف القدر وتطويق الذئاب ورفرفة النسور. وأحس بالشر يتحفز فيما حوله وكان هو عاجزا عن حماية نفسه. وسمع في داخله أغنيه موسيقى الشر. وفوق القطيفة السوداء لمعت اللؤلؤة العظيمة. حتى أن التاجر لم يستطع أن يرفع بصره عنها وتمارج الجمهور المحتشد بالمدخل وتكسر وسمح للتجار الثلاثة بشق طريق لهم. وكان الجمهور صامتا في تلك الآونه لأنه كان يخشى أن تفوته كلمة واحدة أو تفوته مشاهدة حركة أو تعبير يظهر على الوجه والتزم كينو بالهدوء والصمت والترقب. وكان يشعر بقليل من الشد والاجهاد في ظهره فالتفت ونظر في عيني جوانا وعندما رفع بصره عنها أحس أنه قد تجددت قواه. ولم يلق التجار بالنظرات التي بعضهم البعض ولا الى اللؤلؤة وقال الرجل الجالس وراء المكتب لقد حددت سعرا لهذه اللؤلؤة . والمالك لهذه اللؤلؤة الموجود معنا هنا لا يعتقد أن ذلك السعر مجزيا ولذلك فانا أطلب منكم فحص هذه اللؤلؤ.. أن تفحصوا هذا الشيء وتقدموا سعرا ثم قال لكينو .. «ولاحظ أنني لم أذكر لهم السعر الذي حددته» وهنا بدا على التاجر الاول الذي كان

ناشفا ونحيلا ومفتون العضلات أنه يشاهد اللؤلؤة لاول مرة .
وأمسك باللؤلؤة لاعلى ودحرجها بسرعة بين اصبع الابهام واصبع
السبابة ثم ألقى بها فى ازدراء فى الصينية ثم قال فى جفاء
..لاتدخلونى فى هذه المسألة فانا لن أتقدم بأى سعر على
الاطلاق. لانني لاأريدها. فهذه ليست لؤلؤة ..أنها شيء شاذ
رهيب الحجم ثم تجعدت شفتاه الرقيقتان . وبعد ذلك قام التاجر
الثاني . وهو رجل ضئيل الجسم له صوت خافت خجول بالامساك
باللؤلؤة وراح يتفحصها فى اهتمام ودقة. وأخرج منظارا من جيبه
وفحصها تحت جهاز التكبير ثم انفجر ضاحكا بصوت رقيق
وقال .. اللآلىء الأفضل تكون مصنوعة من الزجاج البراق
واستطرد.. انني أعرف هذه الأشياء فهذه لينة وطباشيرية
وسوف تفقد ألوانها وتموت تماما بعد مرور شهور قليلة .انظر ..ثم
قدم المنظار لكينو وبين له كيفية استخدامه.

ونظر لأن كينو لم يسبق له أن شاهد سطح لؤلؤة تحت المنظار
المكبر فانه قد صدم لدى مشاهدة سطح اللؤلؤة الغريبة الشكل.

وأخذ التاجر الثالث اللؤلؤة من يدي كينو ثم قال: «هناك شخص بين زبائني يحب مثل هذه الأشياء». واستطرد: «سأدفع ٥٠٠ بيزو ثمنا لها وربما أتمكن من بيعها لزبوني هذا بـ ٦٠٠ بيزو».

وهنا مد كينو يده بسرعة وخطف اللؤلؤة من يد التاجر. وغلفها في جلد الغزال ودفع بها الى داخل قميصه.

فقال الرجل الجالس خلف المكتب: «انني أعرف أنني رجل مغفل ولكني لن أتراجع عن العرض الأول الذي قدمته لك. انني لازلت أعرض عليك ١٠٠٠ بيزو فما رأيك؟». وقال ذلك الكلام بينما كينو يضع اللؤلؤة في جيبه.

فصرخ كينو في وحشية: «لقد وقعت في حبائل الغش والخداع.. لؤلؤتي ليست للبيع هنا. وسوف أذهب. وربما أذهب الى العاصمة ذاتها».

وهنا أخذ التجار ينظرون الى بعضهم البعض نظرات سريعة. وكانوا يدركون أنهم قد بالغوا في قسوتهم وقللوا من شأن اللؤلؤة

أكثر من اللازم، كما كانوا يدركون أنهم سيتعرضون للعقاب بسبب فشلهم في شراء تلك اللؤلؤة، ولذلك قال الرجل الجالس الى المكتب بسرعة: «انني أعرض عليك ١٥٠٠ بيزو».

الا أن كينو كان يشق طريقه بين الجماهير المحتشدة. وترامت اليه همهمة الكلام بصوت خافت حيث كانت دماء الغضب تدق في أذنيه وتدافع بقوة بين الناس، ومشى بخطوات واسعة مبتعدا. وتبعته جوانا مهرولة وراءه.

وعندما جاء المساء جلس الجيران في منازلهم المشيدة من أغصان الأشجار يتناولون فطائر القمح والفول وراحوا يتناولون أحداث الصباح الهائلة بالمناقشة والتحليل.

كانوا في حيرة من أمرهم. فاللؤلؤة كانت تبدو جميلة في نظرهم الا أنهم لم يشاهدوا مثل هذه اللؤلؤة من قبل على الاطلاق. ومن المؤكد أن التجار يعرفون أكثر منهم فيما يتعلق بأسعار اللآلىء وقيمتها الفعلية وقالوا: «وأولئك التجار لم يناقشوا هذه الأشياء.. فكل واحد من التجار الثلاثة كان يدرك أن اللؤلؤة لا قيمة لها».

«ولكن يحتمل أنهم رتبوا كل ذلك مقدماً؟»

«إذا كان الأمر كذلك فمعنى ذلك أنهم يغشوننا ويسلبون حياتنا».

وقال البعض أنه ربما كان من الأفضل لكينو أن يحصل على ١٥٠٠ بيزو. لأن ذلك المبلغ كبير للغاية وأكبر من أى مبلغ شاهده فى حياته. وربما كان كينو مغفلا. ولنفرض أنه ذهب بالفعل الى العاصمة ولم يجد هناك مشتريا للؤلؤته. انه لن يستطيع الحياة بطريقة تغفر معها تلك الجريمة التى ارتكبها فى حق نفسه.

وقال أشخاص آخرون تجتاحهم المخاوف والوساوس أن كينو قد تحدى التجار بهذا التصرف ولذلك سيحجم هؤلاء التجار عن التعامل معه مستقبلا بالمرة. فكينو بذلك قد ذبح نفسه بنفسه ودمر حياته.

وقال آخرون أن كينو رجل شجاع ورجل متوحش وهو على حق وصواب. وربما نستفيد نحن جميعا من وراء شجاعته. كانوا فخورين بكينو ومعجبين به.

وجلس كيندو في منزله القرفصاء على حصيرة النوم وراح يتأمل في تفكير عميق. وكان قد دفن اللؤلؤة تحت حجر بالقرب من حفرة النيران في منزله، وحملق في الأعشاب المنسوجة في حصيرة النوم التي أن تراقصت الرسومات المتقاطعة في رأسه. لقد خسر عالما واحدا ولم يكسب عالما آخر. وكان كينو يشعر بالخوف فهو لم يسبق له في حياته أن ذهب بعيدا عن موطنه ومكانه. كان خائفا من الناس الأغراب ومن الأماكن الغريبة عليه. كان مرعوبا من وحش الغربة والغرابة والذى يسمونه العاصمة.

كانت العاصمة تقع الى ما وراء المياه وعبر الجبال وبمسافة تزيد على الألف ميل. وكل ميل غريب ورهيب وكان أمرا مخيفا بالنسبة له. ولكن كينو كان قد فقد عالمه القديم وينبغى عليه أن يتسلق في جد واجتهاد الى عالم جديد. لأن حلمه عن المستقبل كان حلما حقيقيا ولاينبغي أن يدمر ذلك الحلم على الاطلاق. ولقد قال: انني سأذهب بكل تأكيد. وذلك صنع شيئا حقيقيا ايضا. فالتصميم على الذهاب يعتبر نصف المسافة في الطريق الى الهدف.

وكانت جوانا قد شاهدته وهو يدقن اللؤلؤة وكانت ترقبه أثناء تنظيفها لأبنها كويوتيتو وأثناء ارضاعه باللبن. وأعدت جوانا فطائر القمح من أجل وجبة العشاء.

وجاء جوان توماس وقبع جالسا القرفصاء بجوار كينو وظل صامتا لفترة طويلة الى أن تحدث كينو في نهاية الأمر قائلا: «وما الذي يمكنني أن أفعله بعد ذلك؟ فهؤلاء الناس غشاشون».

فأومأ جوان توماس برأسه في وقار. كان أكبر في السن من كينو. وكان كينو يطلب منه المشورة نظرا لحكمته ورجاحة عقله. فقال جوان توماس: «من الصعب أن نعرف.. نحن ندرك تماما أننا ضحية للغش والخداع منذ أن نولد الى أن نحمل في نعوشنا.. ولكننا نبقى على قيد الحياة. وأنت قد تحديت ليس فقط تجار اللؤلؤ وانما أيضا التركيبة الاجتماعية بأكملها.. طريقة الحياة بأكملها وأسلوب الحياة بأكمله وأنا خائف عليك».

فتساءل كينو: «وما الذي ينبغي على أن أخشاه بخلاف الموت جوعا؟»

ولكن أخاه هز رأسه في بطء وقال: «ينبغي علينا جميعا أن نخاف من الموت جوعا. ولكن لنفرض أنك على صواب.. ولنفرض أن لؤلؤتك لها قيمة كبرى.. فهل تعتقد أن اللعبة انتهت؟».

- «ماذا تعني؟».

فقال جوان توماس: «لا أدرى.. ولكنني خائف عليك. فأنت ستذهب الى أراض جديدة وغريبة عليك.. وأنت لاتعرف الطريق».

فقال كينو: «ولكني سأذهب بالتأكيد.. سأذهب بالتأكيد على وجه السرعة».

ووافق جوان توماس وقال: «نعم. يجب عليك أن تفعل ذلك. ولكنني أشك في أنك ستجد الأمر مختلفا في العاصمة. فأنت هنا لديك أصدقاؤك بالاضافة الى وجودى أنا بجوارك فأنا شقيقك هنا. أما هناك فلن تجد اى شخص الى جوارك».

فصاح كيقو : «وماذا سأفعل؟ وما الذي يمكنني أن أفعله؟».
واستطرد: «يوجد هناك اعتداء وانتهاك شديد. ويجب أن يحصل ابني على فرصته. وتلك هو ما يهدفون اليه. سيقوم أصدقائي بحمايتي».

فقال جوان توماس: «سيقوم أصدقاؤك بحمايتك في حالة ما اذا كان ذلك لايعرضهم للمخاطر أو القلاقل والازعاج، ثم نهض قائلا: «اذهب في رعاية الله».

وقال كيتو: «أذهب في رعاية الله» ولم ينتظر حتى الى أعلى لأن الكلمات كانت بها قشعريرة غريبة.

وبعد أن انصرف جوان توماس بفترة طويلة جلس كيتو مفكرا ومتأملا فوق حصيرة نومه. وهبط عليه تبلد غريب وشعور بالكسل والرغبة في النوم كما اجتاحه شيء من اليأس الرمادي اللون. اذ بدت كافة الطرق وكأنها مسدودة أمامه. وفي داخل رأسه لم يعد يسمع سوى موسيقى العدو للكتيبة الداكنة.

كانت حواسه تتحرق فى اشتعال ولكن عقله رجع الى المشاركة العميقة مع كافة الأمور الهبة التى حصل عليها من أهاليه. كان يسمع كل صوت ضئيل ناجم عن الليل الزاحف، وكان يسمع الشكوى النائمة للطيور المستقرة فى أعشاشها، ونوبات الحب لدى القطط، وضربات الموجات الصغيرة على الشاطئ وصوت انحسارها عنه. بل ويسمع الهمس الخفيف للمسافات .. وكان باستطاعته شم الرائحة الحادة للمساعدة المكشوفة من جانب الموجات المنحسرة. وأدى التوهج الخفيف لنيران الأغصان الى جعل الرسومات والتصميمات فى حصيرة نومه تقفز أمام عينيه المسلوبتين.

وكانت جوانا ترقبه فى قلق الا أنها كانت تعرفه جيدا وكانت تدرك أنها ستساعده أكثر اذا ظلت صامتة وقريبة منه. وراحت هى الأخرى تقاتل أغنية الشر. كما لو كانت هى الأخرى تتمكن من سماعها. بأن بدأت تتغنى بصوت منخفض بأغنية العائلة وبأمن ودفء وشمولية الأسرة والعائلة. وأمسكت بكويوتيتو بين ذراعيها وغنت الأغنية له بهدف أبعاد الشر عنه، وكان صوتها شجاعا فى مواجهة تهديدات الموسيقى المظلمة الكئيبة.

ولم يتحرك كيدو من مكانه ولم يطلب تقديم العشاء له. كانت تدرك أنه سيطلب الطعام عندما يشعر أنه بحاجة للطعام. كانت عيناه مسلوبتين وكان يحس بالشر المتحفز المترقب خارج منزله المصنوع من الأغصان، بل وكان يشعر بالأشياء الداكنة الزاحفة التي تنتظر خروجه الى ظلمات الليل. كان شيئا مبهما وسخيفا ومع ذلك كان يستدعيه ويهدده ويتحداه واتجهت يده اليمنى الى داخل قميصه وتحسس سكينه وكانت عيناه متسعتين ثم نهض واقفا واتجه الى المدخل.

وأرادت جوانا أن توقفه فرفعت يدها لكي توقفه وفتحت فمها في رعب. وظل كيدو يحملق للحظات طويلة في الظلام ثم خرج الى الظلام. وسمعت جوانا صوت اندفاع خفيف وصوت المقاومة الممزوجة بالتخبر والضرب. فتجمدت في رعب للحظات وبعدئذ تراجعت شفتاها عن أسنانها مثل شفتي قطة. ثم وضعت كويوتيتو على الأرض. وأمسكت حجرا من موقد النيران واندفعت خارجة الى الظلام ولكن المشهد كان قد انتهى في تلك اللحظة. كان كيدو

مستلقيا على الأرض وقد راح يكافح لكي يتمكن من الوقوف على قدميه ولم يكن هناك أي شخص بالقرب منه. لم يكن هناك سوى الظلال وتدافع الأمواج وارتطامها بالشاطئ وهمس المسافات. الا أن المشركات موجودا في جميع الأرجاء مختفيا وراء السور المصنوع من الأغصان وجاثما بجوار المنزل تحت جنح الظلال ومرفرفا في الهواء.

وربت جوانا الصخر ووضعت ذراعيها حول كينو وساعدته الى أن وقف على قدميه، وساندته وسارت به الى داخل المنزل. كانت الدماء ترشح من فروة رأسه وكان هناك جرح طويل عميق في خده ممتد من أذنه الى ذقنه. جرح دامي عميق. ولم يفقد كينو وعيه تماما. وهز رأسه من جانب لآخر. كان قميصه ممزقا ومفتوحا وملابسه شبه منزوعة. وجلست جوانا على حصيرة نومه وراحت تمسح الدماء عن وجهه مستخدمة جونلتها. وأحضرت له شراب «البلكة» ليشرب من أبريق صغير، وكان لايزال يهز رأسه ليبعد الاغماء والظلام عن عينيه.

وتساءلت جوانا: «من؟»

وقال كينو: «لست أدرى». واستطرد: «لم أشاهده فى الظلام».

ثم أحضرت جوانا اناء الماء الصلصالى وأخذت تغسل الجرح الموجود فى وجهه بينما كان هو يحملق أمامه وهو يشعر بالدوخة والدوار.

وصاحت: «ياكينو يا زوجى العزيز»، وكانت عيناه تحملقان الى ما وراءها. فاستطردت: «ياكينو .. هل تسمعنى؟»

فقال فى تبلد: «أنا أسمعك»

- «يا كينو. هذه اللؤلؤة هى الشر بعينه. هيا بنا ندمرها قبل أن تدمرنا. هيا بنا نسحقها بين حجرين.. هيا بنا.. هيا بنا نلقى بها الى البحر مرة أخرى نلقى بها الى المكان الذى تنتمى اليه. ياكينو انها شر. انها شر مستطير».

وبينما كانت تتكلم عاد الضوء الى عينى كينو حتى انهما راحا يلمعان فى وحشية وتصلبت عضلاته وأصبحت ارادته من حديد.

وقال: «لا. لسوف أحارب هذا الشيء. لسوف أنتصر عليه. ولسوف نحصل على فرصتنا. وضرب بجماع يده على حصيرة النوم. ثم قال: «لن يأخذ أحد منا الحظ السعيد الخاص بنا». ثم هدأت عيناه ووضع يدا حانية فوق كتف جوانا وقال: «صدقيني. أنا رجل بمعنى الكلمة». وظهرت ملامح الدهاء على وجهه وهو يقول: في الصباح سنأخذ زورقنا وسننطلق به إلى عرض البحر وعبر الجبال نحو العاصمة. أنا وأنت معي. ولن يخدعنا أحد ولن يغشنا أحد.. فأنا رجل».

فقالت في صوت مبحوح: «ياكينو.. إنني خائفة .. أي رجل يمكن قتله بكل سهولة. هيا بنا نلقي باللؤلؤة في البحر».

فقال في وحشية: «اسكتي.. إنني رجل.... اسكتي» فلاذت بالصمت. لأ ن صوته كان أمر يطاع. واستطرد: «هيا بنا ننام قليلا . ولسوف نبدأ رحلتها مع بزوغ أول ضوء.. أأنت خائفة من الذهاب معي؟»

ـ لا. يا زوجي!

وبرقت عيناه بالدفء والحنان تجاهها آنئذ ولمست يده خدها وقال: هيا بنا ننام قليلا».

الفصل الخامس

ارتفع القمر المتأخر قبل الصباح الأول للذبكة..وفتح كينو عينيه في الظلام لأنه شعر بحركة بالقرب منه الا أنه لم يتحرك. وانما راحت عيناه تفتشان في الظلام وتحت الضوء الشاحب للقمر والذي تخلل من ثقوب المنزل المشيد من الأغصان شاهد كينو جوانا وهي تنهض في صمت من جواره. وشاهدها تتحرك صوب حفرة النيران. وكانت تسير في حرص شديد حتى أنه لم يسمع سوى صوت خافت للغاية عندما حركت الحجر الخاص بموقد النيران، وبعدئذ انزلقت كالظلال نحو الباب. وتوقفت للحظات بجوار الصندوق المعلق الذي ينام فيه كويوتيتو ثم عادت على الفور الى الباب وخرجت في لحظات.

وهاج الغضب في داخل كينو، ونهض على الفور واقفاً على قدميه وتبعها في صمت شديد لكي لاتشعر به وتمكن من سماع وقع أقدامها السريعة وهي تتجه نحو الشاطئ ولتقتفي أثرها بسرعة وكان ذهنه أحمر اللون ومشتعلاً بالغضب، وهرولت بعيداً عن خط الأكواخ وتعثرت فوق الصخور الصغيرة المتقلعة عن الجبل وهي تتجه نحو الماء. وبعدئذ سمعته آتياً وراءها فانطلقت تجري بأقصى سرعة. وارتفع ذراعها لكي ترمي اللؤلؤة عندما هجم عليها وأمسك بذراعها وانتزع اللؤلؤة وأخذها منها وضربها على وجهها بجماع يده فسقطت بين الصخور، وركلها ورفسها في جانبها .وتحت الضوء الشاحب شاهد الأمواج الصغيرة تتكسر فوق جسدها، وعامت جونلتها فيما حولها والتصقت بساقيها لدى انحسار الماء.

ونظر كينو نحوها وقد كشف عن أسنانه وأنيابه وكان يهسهس نحوها كالثعبان وحملقت جوانا في وجهه بعينين واسعتين خاليتين من الخوف مثل نعجة أمام الجزار. كانت تدرك أن القتل والاغتيال كان يتفاعل في داخله، وكان ذلك أمر لابأس به إذ كانت قد تقبلته بحيث لم يعد لديها رغبة في المقاومة أو حتى الاعتراض ..

وبعدئذ هدأت موجة الغضب في داخله وحلت محلها مشاعر الاشمئزاز والغثيان. فاستدار مبتعدا عنها وسار على الشاطئ وعبر خط الأكواخ. وكانت عاطفته قد تسببت في تبلد أحاسيسه.

وسمع الاندفاع والهجوم فأخرج سكينه ووثب على هيكل واحد أسود وشعر بسكينه تنفذ إلى جسد الهيكل. وبعدئذ أطيح به بقوة فوقع على ركبتيه ثم اكتسح مرة أخرى فوقع على الأرض فراحت الأيدي الشرهة تبحث في ملابسه وأخذت الأصابع المحمومة تفتش وتبحث وطارت اللؤلؤة من يده واستقرت وراء حجر صغير بالممر وكانت تومض وتتلألأ وتتألق تحت ضوء القمر الخافت.

وجرت جوانا نفسها ونهضت من بين الصخور الواقعة عند حافة الماء. كان وجهها يموج بألم خفيف وكانت هناك بعض الآلام في خصرها. وثبتت نفسها فوق ركبتيها لبعض الوقت والتصقت جونلتها المبللة بجسدها. لم تكن تحس بمشاعر الغضب من كينو.. فهو سبق أن قال: «أنا رجل» وكان ذلك يعني أمورا معينة بالنسبة لجوانا. كان يعني أنه نصف مجنون وأنه نصف إله.

كان يعنى أن كينو على استعداد لتوجيه قوته ضد الجبل وضد البحر.

وجوانا بروحها النسائية كانت تدرك أن الجبل سيصمد بينما الرجل سيحطم نفسه.. وكانت تعرف أن البحر سيموج ويصطخب عندما يغرق فيه الرجل. ومع ذلك فإن ذلك الشيء هو الذي كان يجعل منه رجلاً نصف مجنون ونصف إله.. وجوانا كانت بحاجة الى رجل ولايمكنها أن تعيش بدون رجل. وعلى الرغم من أن هذه الفوارق بين الرجل والمرأة كانت تثير حيرتها وارتباكها وتفكيرها العميق الا أنها كانت تعرف جوانب هذه الفوارق وتتقبلها وتحتاج اليها.

وكان من الطبيعى أن تتبعه وتسير وراءه. فلم يكن هناك شك فى ذلك. وأحيانا ما تمكنت خاصية المرأة والعقل والحذر وحاسة الحماية والتحفظ والوقاية من كبح جماح رجولة كينو وانقاذهم جميعا.. تحاملت على قدميها فى ألم وغمست راحتى يديها المتكورتين على شكل كوب فى الأمواج الصغيرة وغسلت وجهها المليء بالخدوش والكدمات بالمياه اللاسعة المالحة. ثم انطلقت مهرولة على الشاطئ وراء كينو.

وكان سرب من سحب سمك الرنجة والسردين قد تحرك عبر السماء من جهة الجنوب. وغطس القمر الشاحب وراء جدائل السحب ثم ظهر مرة أخرى حتى أن جوانا قد سارت تحت الظلام الكامل لحظات، ثم سارت تحت الضوء بعد ذلك. كان ظهرها منحنياً بسبب الآلام، وكان رأسها متدليا لأسفل. واخترقت صف الأدغال عندما كان القمر مستترا وراء السحب وعندما نظرت من خلال الشجيرات شاهدت لمعان اللؤلؤة العظيمة على الممر خلف الصخرة. فهبطت على ركبتيها والتقطتها ثم تراجع القمر وراء ظلام السحب مرة أخرى.

وظلت جوانا راكعة على ركبتيها وراحت تفكر فيما اذا كان عليها أن ترجع الى البحر وتنجز مهمتها. وبينما هي تفكر في ذلك الأمر، سطع ضوء القمر مرة أخرى فشاهدت هيكلين داكنين مستلقيين على الممر أمامها. فقفزت للأمام وأدركت أن كينو أحدهما والآخر شخص غريب يتدفق من حلقه سائل لامع داكن.

وتحرك كينو في بطء شديد بينما كانت ذراعاه وساقاه تتحركان في تبلد مثل تلك الخاصة بحشرة مسحوقة. وصدرت

همهمة غير واضحة من فمه. وهنا أدركت جوانا على الفور أن الحياة القديمة قد ذهبت إلى غير رجعة للأبد. فجثة الرجل الميت ووجود سكين كينو إلى جوار الجثة قد جعلها تدرك على الفور جوانب الموقف. لقد ظلت جوانا طوال الوقت تحاول انقاذ قدر من السلام القديم وقدر من الجو السلمي الذي كان سائدا قبل العثور على اللؤلؤة. إلا أن هذا السلام قد ولى في تلك الآونة ولم يعد هناك أمل في استرجاعه. ولم يكن هناك شيء تفعله سوى انقاذ أنفسهم!

وتلاشى عنها الألم آنئذ وذهب عنها بطؤها. فراحت بسرعة تجر جثة الرجل الميت من الممر لتواريه تحت الشجيرات. ثم ذهبت إلى كينو ومسحت وجهه بجونلتها المبللة. فبدأ يعود إلى وعيه وأخذ يتوجع في أنين.

وقال: «لقد أخذوا مني اللؤلؤة. لقد فقدت اللؤلؤة. لقد انتهى الآن كل شيء. بعد أن ضاعت اللؤلؤة».

فراحت تهدئ من روعه مثلما تهدئ من روع طفل مريض. وقالت له: اسكت. هاهي لؤلؤتك. لقد عثرت عليها في الممر. هل

تسمعني الآن؟ ماهي لؤلؤتك هل تفهمني وهل أنت تعي ما أقوله لك؟ لقد قتلت رجلا. ويجب علينا أن نلوذ بالفرار. فهم سيجيئون للبحث عنا. أتفهم ذلك؟ وينبغي علينا أن نهرب قبل بزوغ ضوء النهار.

فقال كينو في قلق: «لقد وقع هجوم علي.. فلجأت للضرب لكي أنقذ حياتي».

فتساءلت جوانا: «هل تتذكر أحداث الأمس؟.. وهل تعتقد أن ذلك سيجدي؟.. وهل تذكر رجال المدينة؟ .. وهل تعتقد أن توضيحك للأمور سيجدي؟!

وسحب كينو نفسا عميقا وقاوم الضعف الذي سرى في كيانه. وقال: «لا.. أنت على صواب!» ودبت القوة في إرادته وأصبح رجلا مرة أخرى.

وقال: «اذهبي إلى المنزل واحضري كويوتيتو وأحضري معك كل القمح الذي لدينا. ولسوف أقوم أنا بإنزال الزورق إلى الماء ولسوف نذهب بكل تأكيد».

ثم أخذ معه سكينه وترك زوجته. وسار متعثرا نحو الشاطئ ووصل الى زورقه، وعندما كشفت السحب عن ضوء القمر مرة أخرى شاهد ثقبا كبيرا في قاع زورقه ،فاجتاحه غضب هائل وأدى الغضب الى تزايد قوته. وكان الظلام يطبق في تلك الآونة على عائلته. وبدأت موسيقى العدو تملأ أرجاء الليل وتتعلق فوق أشجار المنجروف الاستوائية وتصدح في ضربات الأمواج زورق جده الذي غلف بالمصيص مرات ومرات قد ثقبوا فيه ثقبا كبيرا. ان هذا في حد ذاته شر مستطير الى أبعد الحدود. ان قتل رجل لايتساوى في الشر مع قتل زورق لأن الزورق ليس له أولاد ولأن الزورق لايستطيع حماية نفسه ، وجرح الزورق لايلتئم.

وكان غضب كينو ممزوجا بالحزن والأسى الا أن هذا الشيء الأخير قد زاد من تماسكه الداخلي. اذ أصبح حيوانا في تلك الآونة وأصبح مستعدا للاختباء ومستعدا للهجوم، وأصبح يعيش فقط من أجل الحفاظ على نفسه وعلى أسرته. ولم يكن واعيا بالآلام التي تدب في رأسه . وقفز الى الشاطئ وسار الى خط الشجيرات ومنها الى منزله المشيد من الأغصان ولم يخطر على باله أن يأخذ احدى

الزوارق الخاصة بجيرانه. ولم يسبق أن خطر على ذهنه تلك ذات يوم بل ولم يكن يتصور من قبل أن يقوم أحد بخرق زورق وإحداث ثقب فيه.

وأخذت الديكة في الصياح ولم يعد بزوغ الفجر ببعيد. وتسلل الدخان من النيران الأولى من بين حوائط المنازل المشيدة بالأغصان وتصاعدت الى الهواء رائحة اعداد فطائر القمح وبدأت طيور الفجر تفر بالفعل بين الشجيرات وكان القمر الضعيف قد أخذت يفقد ضوءه وراحت السحب تتكاثف تجاه الجنوب.

وهبت الرياح في انتعاش على مصب النهر. كانت رياحا قلقة وعصبية وتحمل في أنفاسها رائحة العاصفة .. وكان هنالك تغير وتقلب وقلق في الهواء.

وشعر كينو وهو يهرول تجاه منزله باصطخاب وهياج. ولم يكن ذهنه مشوشا في تلك الآونه لأنه لم يكن أمامه سوى شئ واحد يفعله واتجهت يد كينو أولا الى اللؤلؤة العظيمة الموجودة في داخل قميصه ثم اتجهت يده الى السكين المتدلية تحت قميصه.

وشاهد توهجا قليلا أمامه ويحدق شاهد على الفور لهيبا عاليا يتصاعد فجأة في الظلام مع حدوث زئير فرقعة عالية وأضاءت النيران العالية الممر. فانطلق كينو بأقصى سرعته حيث أدرك أن المنزل المحترق هو منزله. كما أدرك أن كافة المنازل الأخرى يمكن أن تحترق هي الأخرى في لحظات قليلة. وبينما كان يجري شاهد هيكلا يجري نحوه.. لقد كانت جوانا هي التي تجري ومعها كويوتيتو بين ذراعيها بينما بطانية كينو تتعلق في يدها حيث كانت تقبض عليها في احكام.. وكان الطفل الرضيع يئن في خوف.

وكانت عينا جوانا متسعتين وخائفتين في رعب. وأدرك كينو أن منزله قد أتت عليه النيران وانتهى تماما ولم يوجه أسئلة لجوانا. كان يعرف. ولكنها قالت: «لقد تم تمزيق المنزل تماما وتم حفر أرضيته. وحتى صندوق الطفل قد قلب رأسا على عقب. وبينما كنت أنظر شاهدتهم وهم يشعلون النيران في المنزل من الخارج».

وألقت النيران المتوحشة ضوءا قويا على وجه كينو. فسألها: «ومن هم الذين فعلوا ذلك؟»

فقالت: «لست أدرى» - واستطردت: «الهياكل المظلمة».

وبدأ الجيران فى تلك اللحظة يتدفقون من منازلهم وشاهدوا الشرر المتساقط وداسوا عليه بأرجلهم لكى يحفظوا منازلهم من النيران. ودب الخوف فجأة فى أوصال كيلو. فالضوء قد جعله يشعر بالخوف. وتذكر الرجل الذى يرقد ميتا فى الأدغال بجوار النمر فأخذ جوانا من ذراعها وجذبها الى ظلال احدى المنازل بعيدا عن الضوء لأن الضوء كان خطرا بالنسبة له. وراح يتدبر الأمر للحظات وبدأ يشق طريقه مستترا فى الظلال إلى أن وصل إلى منزل جوان توماس شقيقه وانزلق إلى مدخل المنزل وجذب جوانا وراءه. وفى الخارج كان باستطاعته سماع صراخ الأطفال وصيحات الجيران لأن أصدقاءه اعتقدوا أنه ربما كان نائما فى داخل المنزل المحترق.

كان منزل جوان توماس يكاد يشبه تماما منزل كيلو: كانت كل المنازل المشيدة من القش متشابهة تقريبا. كانت كلها تسمح بتسرب الضوء والهواء حتى أن جوانا وكيلو الجالسين فى ركن منزل الشقيق كان بمقدورهما مشاهدة ألسنة اللهب المتصاعدة من

خلال الحائط. شاهدا ألسنة اللهب الطويلة الغاضبة وشاهدا سقوط السقف ورأيا النيران وهي تخمد بسرعة مثلما تخمد نيران الأغصان بسرعة. وسمعا صرخات التحذير الصادرة عن أصدقائهما، والصرخات الحادة العنيفة التي تطلقها أبولونيا زوجة جوان توماس. فهي بصفتها أقرب النساء لهما من الناحية العائلية كانت تصدر النحيب وتراها رسميا على وفاة العائلة.

وأدركت أبولونيا أنها ترتدي شال الرأس الذي يجيء في المرتبة الثانية من حيث الأفضلية. فاندفعت عائدة الى منزلها لكي تأخذ أفضل شال عندها. وبينما كانت تبحث وتفتش في صندوق بجوار الحائط، قال صوت كينو في هدوء: «يا أبولونيا. لاتصرخي بصوت مرتفع. نحن لم يصبنا أي ضرر. لم تصب بأي أذى!»

فتساءلت: «كيف جئتما إلى هنا؟»

فقال «لاتسألي.. واذهبي الآن الى جوان توماس واحضريه الى هنالك ولاتخبري أي شخص آخر بوجودنا لأن هذا مهم بالنسبة لنا يا أبولونيا».

فصمتت وامتدت يداها في حيرة وعجز أمامها وقالت: «هو كذلك يا شقيق زوجي».

وبعد لحظات قليلة رجع جوان توماس معها، وأثناء شمعة وجاء إليهما في الركن الذي يربضان فيه ثم قال: «يا أبولونيا راقبي الباب ولاتسمحي لأي شخص بالدخول». لقد كان جوان توماس هو الشقيق الأكبر سنا وتولى مهمة السلطة القيادية وقال: «والآن يا أخي. احكي لي».

وقال كينو: «لقد وقع على هجوم في الظلام.. وأثناء المعركة قتلت رجلا». فقال جوان توماس بسرعة: «من هو؟».

- «لست أدري. كانت الدنيا حالكة الظلام.. ظلام دامس ونوع معين من الظلام».

فقال جوان توماس: «إنها اللؤلؤة. اللؤلؤة هي السبب. يوجد هناك شيطان في هذه اللؤلؤة. كان ينبغي عليك أن تتخلص منها بالبيع وتتخطى ذلك الشيطان. وربما كانت الفرصة مازالت سانحة أمامك لتبيعها وتشتري السلام والطمأنينة لنفسك».

فقال كيلو: «يا أخي العزيز. لقد تعرضت لاهانة أشد عمقا من حياتي ذاتها. لأن زورقي على الشاطئ قد ثقب وكسر ولأن منزلي قد حرق وفي الادغال يرقد رجل ميت. ولم تعد هناك وسيلة تعيننا على الهرب. يجب عليك أن تخبئنا يا أخي».

ونظر كينو عن كثب وفي امعان فشاهد القلق العميق يتوغل في عيني أخيه. وتوقع منه أن يرفض هذا المطلب فسارع إلى القول: «إلى أن يمر يوم واحد فقط والى أن يظهر الضوء الجديد. وعندئذ سنرحل».

فقال جوان توماس: «سأخبئكم بكل تأكيد».

وقال كينو: «انني لا أريد أن أجلب المخاطر والأخطار لكم.. انني أعرف انني أصبحت مثل مرض الجذام. ولذلك سأذهب الليلة وبذلك تكون أنت في أمن وأمان».

فقال جوان توماس: «سأحميك بكل تأكيد». ثم نادى على زوجته: «يا أبولونيا. أغلقي الباب ولا تقولي أي همس يفهم منه أن كينو موجود هنا».

وجلسوا في هدوء طوال اليوم بين طيات الظلام بالمنزل. وكان باستطاعتهما سماع الجيران وهم يتحدثون عنهما ومن خلال حوائط المنزل تمكنوا من مشاهدة جيرانهم وهم يفتشون بين الرماد بحثا عن الظلام. وسمعا وهما جاثمان في منزل جوان توماس الصدمة وهي تسري في عقول جيرانهما لدى سماع أنباء الزورق المكسور.

وخرج جوان توماس ليندس بين الجيران ويبعد شكوكهم وراح يقدم لهم النظريات والأفكار عما حدث لكينو وجوانا والطفل الرضيع وقال لواحد من الجيران: «أعتقد أنهم قد اتجهوا جنوبا على طول الساحل للهرب من الشر الذي كان يلاحقهم». وقال لشخص آخر: «كينو لا يمكنه أبدا أن يترك البحر. وربما يكون قد عثر على قارب آخر». وقال: «لقد مرضت أبولونيا بسبب الحزن الشديد».

وفي ذلك اليوم ازدادت سرعة الرياح وراحت تضرب في الخليج وتمزق الأعشاب البحرية التي تصطف على الشاطئ. وراحت الرياح تزأر بين المنازل المشيدة من الأغصان، ولم يكن هناك زورق آمن فوق الماء. فقال جوان توماس بين

جيرانه : «لقد ضاع كينو. اذا كان قد ذهب إلى البحر يكون قد غرق الآن.. وعقب كل زيارة يقوم بها بين الجيران كان جوان ترماس يرجع ومعه شئ ما استعاره من الجيران.. انا أحضر حقيبة صغيرة منسوجة من القش مليئة بالبقول الحمراء كما أحضر قرعة مليئة بالارز.. واستعار فنجانا مليئا بالفلفل المجفف وكتلة من الملح، كما أحضر سكينا يبلغ طولها نحو ١٨ بوصة. وكانت ثقيلة مثل فأس صغير فهي آلة وسلاح في آن واحد!

وعندما شاهد كينو السكين الخاصة به برقت عيناه وداعب النصل، وأخذ يفحص الحافة باصبع الابهام.

وصرخت الرياح فوق الخليج وحولت المياه إلى اللون الأبيض وتمايلت أشجار المنجروف في عنف مثل الماشية المذعورة، وتصاعدت الرمال الناعمة من الأرض وتعلقت علي شكل سحابة خانقة فوق البحر. ودفعت الرياح السحب وأزاحت السحب من السماء وجرفت رمال المنطقة مثل الثلج.

وبعدئذ وعندما اقترب المساء تحدث جوان توماس طويلا مع أخيه وقال له: «إلى أين ستذهب؟»

فقال كينو: «إلى الشمال.. لقد سمعت أنه توجد هناك مدن في الشمال».

فقال جوان توماس: «تجنب الشواطئ. فهم قد وضعوا فرقة للبحث على الشواطئ. والرجال بالمدينة سيبحثون عنك. هل مازلت محتفظا باللؤلؤة؟»

فقال كينو: «انني محتفظ بها. ولسوف أظل محتفظا بها. ولقد كان من الممكن أن أقدمها كمنحة للفقراء والمحتاجين ولكنها الآن النحس الخاص بي وتعتبر حياتي ولسوف أحتفظ بها».. وكانت عيناه جامدتين وقاسيتين ومريرتين.

وانخرط كويوتيتو في نشيج وبكاء فراحت جوانا تتمتم ببعض التعاويذ السحرية فوق جسده لكي يكف عن البكاء.

وقال جوان توماس: «الرياح على ما يرام.. وأضاف: «ولن تكون هناك آثار أقدام».

وغادروا المكان في هدوء تحت جنح الظلام وقبل أن يرتفع القمر في السماء. وقفت العائلة بطريقة رسمية في منزل جوان توماس.. وحملت جوانا كويوتيتو على ظهرها وغطته وأمسكته بشال رأسها، فنام الطفل الرضيع وقد انحرف خده على كتفها.

كان شال الرأس يغطي الطفل الرضيع وكان أحد طرفي الشال يغطي أنف جوانا لكي يحميها من هواء الليل الشرير. وعانق توماس شقيقه عناقاً مزدوجاً وقبله على كلتي وجنتيه وقال: «اذهب في رعاية الله».

وكانت تلك العبارة شبيهة بالموت. واستطرد: «ألن تتخلى عن اللؤلؤة؟»

فقال كينو: «لقد أصبحت اللؤلؤة هي كل حياتي وروحي. فإذا تخليت عن اللؤلؤة سأفقد حياتي واذهب أنت أيضاً في رعاية الله».

الفصل السادس

وهبت الرياح في وحشية وقوة وقذفتهم بقطع من العصى والرمال والصخور الصغيرة . فجذبت جوانا وكينو ملابسهما نحوهما في احكام، وغطيا أنفيهما وخرجا إلى العالم.

كانت السماء خالية من السحب بسبب شدة الرياح.. وكانت النجوم باردة في السماء السوداء . وسار الاثنان في حرص وحذر وتجنبا الدخول إلى وسط المدينة لكي لا يشاهدهما أي شخص نائم من خلال فتحة باب أحد المنازل وهما يمران بجواره . لأن المدينة كانت قد أغلقت نفسها في مواجهة الليل وأي شخص يتحرك هنا وهناك في الظلام يمكن أن يثير الانتباه .

وشق كينو طريقه في حذر حول أطراف المدينة ، واستدار متجها الى الشمال.. والى الشمال مسترشدا بالنجوم.. وعثر على الطريق الرملي المليء بالحفر والأخاديد والذى يؤدى الى الطريق الريفي المليء بالشجيرات.. والذي يتجه إلى مدينة «لوريتو».. حيث يوجد المكان الذى ظهرت فيه معجزة العذراء.

وكان كينو يشعر بالرمال المثارة وهى ترتطم بساقية.. وكان مسرورا لذلك حيث كان يدرك أنه لن تكون هناك آثار للأقدام، وأوضح له الضوء الخافت المتراسى من النجوم الطريق الضيق الذى يتخلل المناطق الريفية المليئة بالشجيرات. وكان باستطاعة كينو سماع الأصوات الخافتة لتدمى جوانا خلفه.. كان يسير بسرعة وهدوء وكانت جوانا تسرع الخطى وراءه لكى لا تتخلف عنه.

كان هناك شيء ما قديم يتحرك في داخل كيان كينو، فمن خلال خوفه من الظلام والشياطين التى تلازم الليل كان هناك تدفق من البهجة والانتعاش : كان هناك شيء ما حيوانى يتحرك فى داخله، حتى أنه كان حذرا ومحترسا ومتيقظا وخطيرا، شيء ما

قديم محفور في ماضي أهاليه كان حيا في داخله كانت الرياح تهب عند ظهره وكانت النجوم ترشد خطاه.

وصاحت الرياح وصفرت في الشجيرات واستمرت العائلة في السير على وتيرة واحدة ساعة وراء ساعة.. ولم يشاهدهما أي شخص ولم يشاهدا أي شخص وأخيرا والى اليمين منهما ارتفع القمر باهت الضوء.. وعندما ارتفع هدأت الرياح وأصبحت الأرض ساكنة.

الآن أصبح بمقدورهما مشاهدة الطريق الصغير أمامهما حيث كانت هناك آثار عجلات محفورة بعمق في الرمال، ونظرا لأن الرياح قد هدأت فقد أصبح من المتوقع أن تكون هناك آثار أقدام منطبعة على الرمال الا أنهما أصبحا على مسافة كبيرة من المدينة، وربما لا يلحظ أحد آثار أقدامهما. وكان كينو يمشي في حرص فوق الأخاديد التى أحدثتها العجلات وكانت جوانا تتبع نفس خطواته. ولذا مرت عربة كارو كبيرة واحدة متجهة إلى المدينة في الصباح فانها ستمسح كل آثار الأقدام الناجمة عن مرورهما في تلك الطريق.

واستمرا في السير طوال الليل ولم يغيرا من ايقاع خطواتهما على الإطلاق، واستيقظ كويوتيتو مرة واحدة فغنته جوانا ليصبح أمامها وراحت تهدئ من روعه الى أن استغرق في النوم مرة أخرى.

وكانت شرور الليل منتشرة هنا وهناك حولهما كانت الذئاب تصيح وتتضاحك في الأدغال، وكانت البومات تطلق صرخات الذعر والألم وتهسهس فوق رأسيهما.. ومشى حيوان كبير في تثاقل مبتعداً عنهما محطما الشجيرات أثناء سيره. فأمسك كينو بمقبض سكينه الكبير متحفزا للوقاية منه.

كانت موسيقى اللؤلؤة مبتهجة بالنصر في داخل عقل كينو.. وكانت نغمة العائلة الهادئة تنساب تحتها. لقد سار طوال الليل. ومع ظهور التباشير الأولى للفجر، بحث كينو عن مكان سرى على جانب الطريق للتخفي والاستلقاء فيه أثناء فترة النهار.

وعثر على مكان ملائم بالقرب من الطريق، عبارة عن مساحة صغيرة من الأرض خالية من الأشجار وربما استخدمتها

الغزلان للاضطجاع فيها، وكانت تحجبها عن الطريق ستارة كثيفة من الأشجار الجافة الهشة وعندما جلست جوانا واستقرت لترضع طفلها، ورجع كينو إلى الطريق. وكسر غصنا من شجرة وراح يمسح به آثار الأقدام عند المكان الذي انعطفا فيه عن الطريق الرئيسي. وبعدئذ ولدى ظهور الضوء الأول سمع صرير عجلات إحدى العربات، فجثم بجوار الطريق. وشاهد عربة كارو ثقيلة ذات عجلتين يجرها ثور تنطلق على الطريق وعندما اختفت عن الأنظار تماما رجع إلى الطريق. نظر إلى الأخاديد المحفورة وأدرك أن انطباعات الأقدام قد تلاشت. وراح يزيل آثار أقدامه مرة أخرى ثم رجع إلى جوانا.

وقدمت له فطائر القمح اللينة التي كانت أبولونيا قد أعدتها من أجلهما. وبعد قليل استسلمت للنوم لكي ترتاح بعض الشيء. ولكن كينو جلس على الأرض وأخذ يحملق في التراب الموجود أمامه. شاهد النمل يتحرك. صف صغير من النمل يتحرك بالقرب من قدمه، فوضع قدمه في طريق النمل، فتسلق طابور النمل فوق

مشط قدمه، واستمر في طريقه وترك كيلو قدمه في مكانها وراح يرقب النمل وهو يتحرك فوقها.

وأشرقت الشمس في سخونة. لم يكونا في تلك الآونة قريبين من الخليج وكان الهواء جافا وحارا حتى أن الشجيرات كانت تتلوى في ألم بسبب الحرارة. وانبعثت منها رائحة طيبة، وعندما استيقظت جوانا لدى ارتفاع الشمس في كبد السماء، قال لها كيلو أمورا كانت هي تعرفها بالفعل من قبل.

قال لها مشيرا بيده: «احترسي من ذلك النوع من الأشجار هنالك.. لا تلمسي هذه الأشجار بيديك. لأنك انا فعلت هذا ثم قمت بعد ذلك بلمس عينيك فان هذا يؤدي الى فقدان البصر. واحترسي من الشجرة التي تدمي وتنزف العصارة. مثل تلك الشجرة الموجودة هنالك.. لأنك اذا كسرت هذه الشجرة ستنساب منها الدماء الحمراء.. وهذا فأل سيئ وهذا نحس!».

وأومأت برأسها وابتسمت في وجهه قليلا لأنها كانت تعرف كافة هذه الأمور.

وتساءلت: «هل سيتبعوننا؟ هل تعتقد أنهم سيحاولون العثور علينا؟».

فقال كينو: «أنهم سيحاولون ذلك، وأي شخص منهم يعثر علينا سيأخذ اللؤلؤة. أوه. أنهم سيحاولون».

قالت جوانا: «ربما كان التجار على صواب من حيث أن اللؤلؤة ليست لها قيمة. وربما هذا كان كله مجرد وهم وخداع».

فوضع كينو يده في ملابسه وأخرج اللؤلؤة. وترك الشمس تتلاعب بها إلى أن اشتعلت في عينيه وقال:

«لا. لو أنها غيرت ذات قيمة لما حاولوا سرقتها».

- «هل تعرف الشخص الذي هاجمك؟ وهل التجار أنفسهم هم الذين هجموا عليك؟».

فقال: «لست أدري. فأنا لم أتمكن من رؤيتهم» وأخذ يمعن النظر في اللؤلؤة ليعثر على رؤياه وتخيلاته. وقال: «عندما نبيعها في نهاية الأمر سيكون لدينا بندقية».

ثم أخذ يتفحص السطح اللامع بحثاً عن بندقيته، الا أنه لم يشاهد سوى جثة داكنة متكومة على الأرض تتدفق دماء لامعة من حقلها. فقال على وجه السرعة: «ولسوف تتم مراسم زواجنا في كنيسة كبيرة».

وفي اللؤلؤة شاهد جوانا بوجهها الدامي المضروب تزحف بين طيات الليل متجهة إلى منزلها. فقال في اهتياج مسعور: «وابننا يجب أن يتعلم القراءة».

وهنالك في داخل اللؤلؤة كان وجه كويوتيتو متورماً ومحموماً بسبب الدواء.

فسارع كينو الى اعادة اللؤلؤة الى داخل ملابسه حيث كانت موسيقى اللؤلؤة قد أصبحت شريرة ومشئومة في داخل أذنيه وأصبحت داخلة في نسيج موسيقى الشر.

وضربت الشمس الساخنة فوق الأرض حتى أن كينو وجوانا تحركا الى الظلال غير المكتملة للشجرة وفرت طيور رمادية صغيرة فوق الأرض تحت الظلال. وتحت حرارة النهار استرخى

كينو وغطى عينيه بقبعته ولف بطانيته حول وجهه لإبعاد الذباب عنه واستسلم للنوم.

ولكن جوانا لم تنم. جلست هادئة مثل حجر.. وكان وجهها هادئا. وكان فمها مازال متورما في المكان الذي ضربها كينو عليه، وراح الذباب الكبير يطن حول الجرح الموجود فوق ذقنها، الا أنها كانت تجلس بدون حراك مثل حارس أو خفير. وعندما استيقظ كويوتيتو وضعته على الأرض أمامها وشاهدته وهو يلوح بيديه ويرفس بقدميه وأخذ يبتسم لها ويقرقر في وجهها الى أن ابتسمت هي الأخرى. والتقط غصنا رفيعا صغيرا من الأرض وداعبته به ووخزته به وخزا خفيفاً، وأعطته ماء في القرعة التي كانت تحملها في الصرة الخاصة بها.

وتحرك كينو في حلم. وصاح بصوت بلعومي وتحركت يده في قتال رمزي. ثم توجع في أنين ونهض جالسا فجأة وقد اتسعت عيناه، كما اتسعت فتحتا أنفه نحو الخارج. وراح يصغي في انتباه فلم يسمع سوى الحرارة المتشنجة وهسهسة المسافات.

فتساءلت جوانا: «ماذا في الأمر؟».

فقال: «اسكتي!».

- «أنت كنت تعلم»

- «ربما».

إلا أنه كان قلقا وعندما أعطته كعكة قمح من المخزون الخاص بها، توقف أثناء مضغ الطعام لكي يصغي في انتباه. كان قلقا وعصبيا، وألقى نظرة من فوق كتفه ورفع سكينة الضخمة وتحسس نصلها.

وعندما فرقر كويوتيتو فوق الأرض قال كينو: «أسكتيه .. لا أريد أي صوت»

فتساءلت جوانا: «ماذا في الأمر؟»

- «لست أدري»

وراح يصغي في انتباه شديد مرة أخرى وقد ظهر ضوء حيواني في عينيه. ثم نهض واقفا في صمت شديد وجثم منحنيا

وشق طريقه بين الشجيرات في اتجاه الطريق، ولكنه لم يطأ بقدميه الطريق. وزحف تحت ستار شجرة شوكية وحملق على طول الطريق الذي جاء منه.

وعندئذ شاهدهم يتحركون على ذلك الطريق.. فتصلب جسده وجذب رأسه إلى أسفل وألقى نظرة خاطفة من تحت غصن ساقط. فتمكن من مشاهدة ثلاثة هياكل على مسافة بعيدة: اثنان منهم يسيران على الأقدام والثالث فوق ظهر حصان، ولكنه كان يعرف وظيفة هؤلاء الناس.

وسرت في كيانه قشعريرة خوف. وبرغم بعد المسافة الا أنه تمكن من مشاهدة الرجلين اللذين يسيران على الأقدام وهما يتحركان في بطء وينحنيان على الأرض. كان أحدهما يتوقف وينظر إلى التراب في حين ينضم الآخر اليه. لقد كانوا هم الناس الذين يقتفون آثار الأقدام، وهم أناس مدربون بحيث يمكنهم تتبع آثار أقدام كبش الجبال في المناطق الجبلية الحجرية. وهم أناس لهم نفس حساسية كلاب الصيد. وربما يكون هو وجوانا قد خرجا من الأخاديد المحفورة بالطريق والناجمة عن آثار العجلات وهؤلاء

الناس المنتمون للأماكن الصحراوية الداخلية البعيدة عن الشواطئ هؤلاء الصيادون المتقنون للآثار.. بمكنهم ملاحظة قشة مكسورة أو كومة تراب صغيرة تعثر فيها أحد. وخلفهما كان يوجد رجل داكن يمتطي حصانا، وقد غطى أنفه ببطانية. وبجوار سرج الحصان كانت توجد بندقية تلمع تحت ضوء الشمس.

كان كينو مستلقيا في تخشب مثل جذع الشجرة وكتم أنفاسه واتجهت عيناه إلى المكان الذي مسح فيه آثار الأقدام. حتى عملية الكنس هذه قد تكون من العلامات التي تنبه مقتفي الأثر. كان يعرف جيدا هؤلاء الصيادين الذين يعملون بالأماكن الداخلية، ففي منطقة لا يوجد بها سوى القليل من حيوانات الصيد حاولوا العيش بسبب مقدرتهم على الصيد، وهم الآن يصطادونه.. كانوا يعدون ويخطون بسرعة على الأرض مثل الحيوانات وعثروا على علامة وجثموا فوقها بينما بقي الرجل الممتطي للحصان منتظرا.

وعوى قصاصو الأثر في شيء من الأنين مثلما تفعل الكلاب الهائجة فوق ممر في طريق وعرة. فسحب كينو سكينه الضخم في بطء وأمسك بها في يده ليكون في حالة استعداد. كان يعرف ماذا

بها في يده ليكون في حالة استعداد. كان يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعله. لو عثر قصاصو الأثر على المكان المكنوس، فإنه يجب عليه أن يهجم على الرجل المعتلي الحصان ويقتله بسرعة خاطفة ويأخذ البندقية. وكانت تلك هي الفرصة الوحيدة أمامه في العالم. وبينما كان الأشخاص الثلاثة يقتربون تدريجيا على الطريق قام كينو بحفر حفرة صغيرة بأصابع قدميه الموجودة بالصندل وذلك حتى يتمكن من القفز بدون سابق انذار ولكي لا تنزلق قدماه.. ولم يكن لديه سوى رؤية قليلة تحت الغصن المكسور.

وفي تلك اللحظات سمعت جوانا القابعة في مخبأها الأصوات الخافتة لحوافر الحصان وبدأ كويوتيتو يقرقر فأمسكت به بسرعة ووضعته تحت الشال الخاص بها وقدمت له ثديها فالتزم بالصمت.

وعندما اقترب مقتفو الأثر لم يشاهد كينو سوى سيقانهم وأرجل الحصان من تحت غصن الشجرة الساقط. شاهد الأقدام الداكنة للرجال وثيابهم البيضاء الممزقة البالية، وسمع صرير جلد السرج وسمع خشخشة المهاميز. وتوقف مقتفو الأثر عند المكان المكنوس، وراحوا يدرسونه... وتوقف الرجل المعتلي الحصان. وألقى

الحصان برأسه إلى أعلى وخشخشت أسطوانة «الشكيمة» تحت لسانه... وصهل الحصان فاستدار الشخصان الداكنان وراحا يلحظان الحصان ويرقبان أذنيه.

وكتم كينو أنفاسه تماما. ولكن ظهره ألمه بعض الشيء وتصلبت عضلات ذراعيه ورجليه مع التوتر.. وتكون خط من العرق فوق شفته العليا. انحنى قصاصو الأثر للحظات طويلة فوق الطريق، وبعدئذ استمروا في سيرهم في بطء وراحوا يدرسون طبيعة الأرض أمامهم وتحرك الرجل الممتطي للحصان خلفهما. كانوا يسيرون بسرعة ثم يتوقفون وينظرون ويستأنفون السير السريع. وكان كينو يدرك أنهم سوف يرجعون وأنهم قد يقومون بأعمال التطويق والبحث والقاء النظرات الخاطفة المختلسة، والانقضاض، كان يدرك أنهم سيرجعون إن آجلا أو عاجلا إلى آثار أقدامه المغطاة.

وانزلق راجعا للوراء ولم يهتم بإخفاء آثار أقدامه. لم يكن باستطاعته ذلك. إذ كانت هنالك الكثير من العلامات والدلائل الصغيرة والكثير من فروع الأشجار المكسورة وأماكن الأحجار،

والكثير من الحجارة المزاحة من أماكنها. وكان هناك هلع شديد يتفاعل في داخل كينو في تلك الآونة هلع شديد من الهروب. فرجال الأثر سيعثرون على آثار أقدامه وكان يدرك ذلك تماما.

ولم يكن هناك شيء يفعله سوى للهروب. وانحراف عن الطريق واتجه في سرعة وصمت إلى المخبأ الذى تختبئ فيه جوانا. فنظرت نحوه مستفسرة.

فقال: قصاصو الأثر. واستطرد: «قد جاءوا»

وبعدئذ اجتاحته موجة من الشعور بالعجز واليأس.. وخلا وجهه من التعبير أو الأنفعال، وأطل الحزن من عينيه. وقال: «ربما ينبغي على أن أدعهم يمسكون بي».

فنهضت جوانا واقفة على قدميها على الفور. ووضعت يدها على ذراعه وقالت في صراخ خشن: «أنت معك اللؤلؤة. فهل تعتقد أنهم سيعودون بك حياً ليقولوا أنهم قد سرقوا منك اللؤلؤة؟»

وتاهت يده وهى تتجه في بطء إلى المكان الذى خبأ فيه اللؤلؤة في داخل ملابسه. وقال في ضعف: «انهم سيعثرون عليها بكل تأكيد».

فقالت: «هيا. إسرع».

وعندما لم تظهر عليه استجابة تساءلت: «هل تعتقد أنهم سيسمحون لي بأن أبقى على قيد الحياة؟

وهل تظن أنهم سيسمحون للطفل الصغير هنا أن يعيش؟».

كانت كلماتها مثل النخس بالمهماز، فوصل النخس الى ذهنه مثل الضرب بالسياط.. فتشابكت شفتاه وظهر التوحش فى عينيه مرة أخرى وقال: «هيا تعالى سنذهب الى الجبال.. وربما نتمكن من الافلات منهم بالذهاب الى الجبال».

وراح يجمع فى جلون القرعات والحقائب الصغيرة القليلة التى تمثل كل ممتلكاتهما. وحمل كينو صرة فى يده اليسرى ولكن السكينة الضخمة كانت تتحرك فى حرية فى يده اليمنى. وأفسح الشجيرات من أجل جوانا وأسرعا للخطى فى اتجاه الغرب نحو الجبال الحجرية العالية. وهرولا بسرعة بين الطحالب المتشابكة والنباتات الصغيرة.

كان هذا هروبا مليئا بالرعب والهلع. ولم يحاول كينو اخفاء آثار أقدامه. كان يهرول ويركل الحجارة ويوقع الأوراق من الشجيرات الصغيرة برغم أن هذه الأوراق قد ترشد عن خط سيرهما. وتدفقت حرارة الشمس العالية فوق التربة الجافة التي تحدث صوتا كالصرير، حتى أن الحياة النباتية ذاتها كانت تنتفض احتجاجا.

ولكن أمامهما كانت توجد الجبال الجرانيتية العارية التي تبرز بين حجارة التعرية وتقف متراصة ومتناغمة في مواجهة السماء. وجرى كينو من أجل الوصول الى المكان العالي مثلما تفعل كافة الحيوانات تقريبا التي تتعرض للمطاردة.

كانت هذه الأرض بدون ماء ومكتسية بنبات الصبار الذي يخزن الماء، وبالشجيرات ذات الجذور العميقة التي تصل لمسافات طويلة بداخل التربة من أجل الحصول على شيء من الرطوبة، وتفلح في تدبير أمورها بعض الشيء. وتحت أقدامهما لم تكن هناك تربة وانما كانت هناك صخور متكسرة الى مكعبات صغيرة وشرائح كبيرة، ولكنها كلها غير محاطة بالماء.. وكانت هناك

روابي صغيرة من الأعشاب الجافة الحزينة نامية بين الأشجار وهي أعشاب كانت تبرعمت ونمت بسرعة بعد حدوث هالة وحيدة من الأمطار، وحققت بعض التقدم وأسقطت حبوبها وماتت.. وكانت الضفادع ترقب العائلة وهي تسير بجوارها وتدير رؤوسها الصغيرة وتتخبط مبتعدة وتختبئ وراء أقرب صخرة. وكانت حرارة الشمس اللاسعة الحارقة ترقد فوق هذه المنطقة الصحراوية وأمامها كان الجبال الصخرية تبدو باردة ومنعشة ومرحبة بهما.

وهرب كينو. كان يدرك ما سيحدث بعد ذلك.. فالباحثون عن آثار الأقدام بعد أن يقطعوا مسافة طويلة قليلة للأمام على الطريق سيدركون أنهم قد تركوا الممر وبذلك سيرجعون ويبحثون ويفتشون ويكونون الآراء. وبعد وقت قصير سيعثرون على المكان الذي استراح فيه كينو وجوانا. ومن هذا المكان سيصبح الأمر سهلاً بالنسبة لهم. هذه الأحجار القليلة وأوراق النباتات الساقطة على الأرض والأغصان المنزوعة والمساحات التي تظهر عليها آثار الأقدام لدى انزلاق الأقدام عليها. وكان باستطاعة كينو مشاهدتهم

في داخل عقله وهم يتزلقون على طول أثر الأقدام وهم يعوون بعض الشيء في شغف ووراءهما ذلك الرجل الداكن الممتطي الحصان الممسك بالبندقية، وقد ظهر عليه اهتمام قليل.

وعندئذ يجيئ عمله أخيرا لأنه لن يعود بهم. أوه. لقد بدأت الآن موسيقى الشر تترنم عاليا في رأس كينو. كانت تترنم وتتغنى مع أنين وعواء الحرارة ومع الدوى الجاف لخشخشة الحياة والثعابين. لم تكن الموسيقى ضخمة وطاغية، ولكنها كانت سرية وسامة، وكانت دقات قلبه بمثابة الايقاع والنغمة المصاحبة لهذه الموسيقى.

وبدأ الطريق في الصعود. ومع الصعود تزايد حجم الصخور تدريجيا. الا أن كينو كان قد أوجد مسافة بسيطة بين عائلته وبين متقفي آثار الأقدام.. واستراح قليلا عقب تحقيق الصعود الأول. ثم تسلق فوق جلمود صخري هائل ونظر وراءه فوق المنطقة التي تسطع بالأنوار الباهرة. الا أنه لم يتمكن من مشاهدة أعدائه، ولا حتى الرجل الممتطي الحصان بين الشجيرات.

وكانت جوانا قد جلست القرفصاء تحت ظل الجلمود الصخري، ورفعت زجاجة الماء الى شفتي كويوتيتو فراح لسانه الجاف يمتص الماء في ضراعة. ثم نظرت نحو كينو عندما رجع اليها. وشاهدته وهو يفحص رسغي قدميها المجروحتين بسبب الأحجار والشجيرات فغطت قدميها بسرعة بجونلتها. ثم ناولته زجاجة الماء، ولكنه هز رأسه. كانت عيناها ناصعتين في وجهها المرهق.، وبلل كينو شفتيه المشققتين بلسانه. وقال: «ياجوانا. سأستمر أنا.. وأنت سوف تختبئين.. إنني سأقودهم ورائي الى أرجاء الجبال وعندما يتخطون الموقع الذي تختبئين فيه تبدأين في الذهاب الى جهة الشمال الى «لوريتو» أو الى «سانتا روزاليا». وبعد ذلك اذا تمكنت من الهروب منهم سأجيئ اليك. وهذه هي الوسيلة الوحيدة الآمنة السليمة».

فنظرت نظرة عميقة في وجهه للحظات وقالت:

«لا. نحن سنذهب معك»

فقال في خشونة: «باستطاعتي الانطلاق في مزيد من السرعة اذا كنت بمفردي. وأنت ستعرضين طفلنا الصغير لمزيد من الخطر اذا جئت معي».

فقالت جوانا: «لا».

وقال: «يجب عليك فهذا هو التصرف السليم وهذه هي رغبتي».

فقالت جوانا: «لا».

وعندئذ راح يبحث عن الضعف في وجهها. راح يبحث عن الخوف أو التردد ولم يكن هناك شيء من هذا القبيل. كانت عيناها شديدتي اللمعان. وحينئذ هز كتفيه في يأس، الا أنه كان قد استمد منها القوة. وعندما استأنفا انطلاقهما لم يعد هروبهما مليئا بالهلع الشديد.

ومع ارتفاع هذه الأراضي نحو الجبال ظهرت عليها تغييرات سريعة. اذ بدأت تظهر طبقات بارزة طويلة من صخور الجرانيت، مع وجود تصدعات وشقوق عميقة بينها.. وبدأ كيلو يسير فوق

أحجار عارية لا تظهر عليها علامات نظرا لأنه كان يقفز من حافة بارزة لأخرى. وكان يدرك أنه اذا فقد المطاردون آثار أقدامه فانهم سيلفون ويدورون ويضيعون الكثير من الوقت قبل العثور على الآثار مرة أخرى. ولذلك فهو لم يتجه في خط مستقيم الى الجبال بعد ذلك، وانما سار في خطوط متعرجة، وفي بعض الأحيان كان يرجع الى الجنوب ويترك علامة وبعدئذ يتجه نحو الجبال فوق أحجار عارية مرة أخرى. كان الممر يرتفع في انحدار شديد حتى أنه بدأ يلهث أثناء صعوده.

وتحركت الشمس نحو الأسنان الحجرية العارية للجبال واتجه كينو نحو شق مظلم وظليل في السلسلة الجبلية، فلو كانت هناك أية مياه فانها ستكون هنالك حيث شاهد من على مسافة بعيدة شيئاً يسيرا من الخضرة والأوراق الخضراء. واذا كان هناك أي مرور عبر السلسلة الحجرية الناعمة فانه سيكون من خلال نفس هذا الشق العميق. وكان لهذا الشق مخاطرة لأن قصاصي الاثر سيفكرون فيه أيضا، الا أن زجاجة الماء الشاغرة لم تجعل تلك الفكرة تدخل الى ذهن كينو.. وبينما كانت الشمس تميل للمغيب كان كينو وجوانا

يكافحان في اعياء أثناء صعودهما فوق المنحدر الشديد في اتجاه الممر المشقوق في صخور الجبل.

وهناك في أعلى الجبال الصخرية الرمانية وتحت قمة جبلية متجهمة. وكان يوجد ينبوع ماء صغير، يجلل ويفور ويصدر الفقاعات من شق في الحجر. وكان يغذى صيفا بالجليد المحفوظ تحت الظلال. ومن وقت لآخر يتعرض للجفاف التام وتظهر في قاعة صخور عارية وطحالب مائية جافة. الا أنه في معظم الأوقات تقريبا كان يتدفق بالماء باردا ونظيفا ومحببا للنفس وجميلا، وفي الأوقات التي تسقط فيها الأمطار الفجائية السريعة فانه ينتعش ويصدر عامودا من المياه البيضاء المتدفقة الى أسفل الممر المشقوق الجبلي. الا أنه كان دائما بمثابة ينبوع صغير هزيل. كان يبقبق ويصب مياهه في بركة وبعدئذ يسقط لمسافة مائة قدم الى بركة أخرى، وهذه تنساب بالمياه الى أسفل مرة أخرى، مع الاستمرار هكذا لأسفل ولأسفل إلى أن تختفي نهائيا، وعلى كل حال لم تكن تتبقى كميات كبيرة من المياه فلى كل مرة تسقط فيها المياه فوق جرف شديد الانحدار كان الهواء المتعطش يشرب

منها، كما أنها كانت تتسرب من البرك الى النباتات الجافة . وكانت الحيوانات تجيء من مسافة أميال لكي تشرب من هذه البرك.. والأغنام البرية والغزلان والفئران.. كلها كانت تجيء لتشرب الماء. والطيور التي تقضي يوماً بالأراضي المليئة بالشجيرات، كانت تجيء ليلاً الى البرك الصغيرة التي كانت تشبه السلالم في هذا الممر المشقوق بالجبل.. والى جوار هذا الجدول المائي الصغير وبالأماكن التي يتجمع فيها كميات كافية من التراب والتربة، كانت تظهر مستعمرات النباتات والعشب البرى وأشجار النخيل القصيرة ونبات السرخس ونبات البرشاوشان ونبات الخبيزة وأعشاب البراري الطويلة ذات القصبات المغطاة بالريش والتى ترتفع فوق أوراق ذات أشواك مدببة..

وفى البركة كانت تعيش الضفادع والحشرات التي تتزحلق على سطح الماء كما كانت ديدان الماء تزحف فوق قاع البركة. وكل شيء يحب الماء كان يجيء الى هذه الأماكن الصحية القليلة. وكانت القطط تأخذ فريستها الى هناك وتنثر الريش وتبعثره هنا وهناك وتلعق الماء من خلال أسنانها المليئة بالدماء.

ولقد كانت البرك الصغيرة أماكن للحياة بسبب وجود الماء بها، كما كانت أماكن للقتل والافتراس بسبب الماء أيضا.

وكانت أكثر الدرجات انخفاضا في ذلك السلم، وهي المكان الذي يتجمع فيه جدول الماء قبل أن يهبط متشققا بسرعة لمسافة مائة قدم ويختفي في الصحراء الملبدة بالنجيل وقطع الحجارة الصغيرة، بمثابة رصيف صغير من الحجارة والرمال. ولم يكن يتدفق الى البركة سوى خيط رفيع من الماء في سمك القلم الرصاص، ومع ذلك فقد كانت تكفي لملأ البركة بالماء وجعل نباتات السرخس خضراء بالأماكن البارزة من المنحدر الصخرى وكان العنب الجبلي البرى يتسلق الجبل الصخرى.. وكل انواع النباتات الصغيرة كانت تجد الراحة والارتياح في ذلك المكان.

وكانت السيول قد خلقت شاطئا رمليا صغيراً تتدفق اليه البركة، وتفيض عليه. وكانت البقلات المائية ذات اللون الأخضر الفاتح في الرمال الرطبة. وكان الشاطئ ممتلئاً بالندبات الغائرة، والآثار العميقة الناجمة عن اقدام الحيوانات التي جاءت من أجل أن تشرب وتصطاد.

وكانت الشمس قد مرت فوق الجبال الصخرية عندما شق كينو وجوانا طريقهما الى أعلى المنحدر المكسور، ووصلا أخيرا الى الماء. فمن هذه السلمة كان بمقدورها كشف ومشاهدة جميع أرجاء هذه الصحراء المتعرضة للشمس الحارقة، وحتى الخليج الأزرق البادي على مسافة بعيدة. ووصلا إلى البركة وهما في غاية الاعياء والتعب.

وهبطت جوانا على ركبتيها وراحت أولا تغسل وجه كويوتيتو ثم ملأت زجاجتها بالماء وأسقت ابنها من ماء الزجاجة. وكان الطفل الرضيع مرهقا وعصبيا وراح يبكي في صوت منخفض الى ان أعطته جوانا ثديها وبعدئذ راح يقرقر ويحاول الامساك بها وانشاب أظافره فيها. وشرب كينو في عطش ونهم شديد من البركة مباشرة. وبعدئذ تمدد لبعض الوقت بجوار الماء وأرخى جميع عضلاته، وشاهد جوانا وهي ترضع الطفل. وبعدئذ نهض واقفا على قدميه وذهب إلى حافة السلمة التي ينزلق عليها وراح ينظر ويستكشف في المسافات المترامية أمامه في حرص وعناية. فسقطت عيناه على نقطة فتصلب جسده. فعلى مسافة بعيدة أسفل

المنحدر تمكن من مشاهدة الشخصين اللذين يقتفيان الأثر كان حجمها أكبر قليلا من النقطة أو النملة المنطلقة بسرعة، وخلفهما كانت توجد نملة أخرى أكبر حجما.

وكانت جوانا قد استدارت لتنظر اليه فشاهدت ظهره يتخشب ويتصلب.

فتساءلت في هدوء: «كم يبعدوا عنا؟»

فقال كيلو: «انهم سيصلون الى هنا بحلول المساء». ونظر نحو القتحة الطويلة المنحدرة للشق حيث تهبط المياه. وقـــال: «يجب أن نذهب غربا» وراحت عيناه تبحث في الكتف الصخري وراء الصدع المشقوق..

وعلى مسافة ثلاثين قدم على الكتف الرمادي شاهد سلسلة من الكهوف الصغيرة الناجمة عن النخر والتآكل وعوامل التعرية. فخلع صندله وتسلق صاعدا اليها ممسكا بالصخور العارية بأصابع قدميه وراح ينظر الى داخل هذه الكهوف الضحلة، كان عمقها لا يزيد على عدة أقدام قليلة، كانت بمثابة تجويفات حفرتها الرياح..

الا أنها كانت تنحدر قليلا لأسفل وللوراء. وزحف كيفنو داخلا في أكبر كهف بينهما ، واستلقى على الأرض وأدرك أنه لا يمكن أن يشاهده أحد من الخارج. ثم عاد بسرعة الى جولنا.

وقال : «يجب علينا أن نصعد الى هناك. ربما لم يعثروا علينا هناك» .

وملأت بالطبع زجاجة الماء الخاصة بها حتى قمتها .. وبعد ذلك ساعدها على الصعود الى الكهف المنحل وأحضر لفائف الطعام وناولها لها. وجلست جولنا في مدخل الكهف وراحت ترقبه. ولاحظت أنه لم يحاول ازالة آثار أقدامهما المنطبعة على الرمال. وبدلا من ذلك تسلق صخرة الشجيرات بجوار الماء وراح يخربش ويمزق في نبات السرخس والعشب الجبلي أثناء سيره .

وبعد أن صعد الى مسافة مائة قدم بدأ في الهبوط مرة أخرى ، ونظر في حذر وعناية نحو الكتف الصخرى الناعم في اتجاه الكهف ليتأكد من أنه لم تظهر آية آثار أقدام وأخيرا صعد الى أعلى وزحف الى داخل الكهف بجوار جولنا .

وقال: «عندما يصعدون إلى أعلى سوف ينزلقون إلى أسفل.. إلى الأراضى المنخفضة مرة أخرى. وكل ماأخشاه هو أن يصيح الولد. وكل مهمتك هى أن تجعله يلتزم بالصمت ولايصيح!».

فقالت: «أنه لن يصيح». ورفعت وجه الطفل إلى وجهها ونظرت بعمق فى عينيه فحملق فى وقار شديد فى وجهها.

وقالت جوانا: «أنه يدرك جوانب الموقف».

وبعدئذ استلقى كينو فى مدخل الكهف وقد وضع ذقنه على ذراعيه المتقاطعين وراح يرقب الظلال الزرقاء للجبل وهى تتحرك عبر الصحراء المليئة بالشجيرات أسفلهم، إلى أن وصلت إلى الخليج. وكانت الظلال الطويلة منتشرة فوق الأراضى.

وتأخر مجيئ مقتفو الأثر كما لو كانوا قد وجدوا متاعب وتعقيدات مع آثار الأقدام التى تركها لهم كينو.. وكان الدغش قد ظهر عندما وصلوا أخيرا إلى البركة الصغيرة. وكان ثلاثتهم يسيرون آنئذ على الأقدام لأن الحصان لايستطيع أن يصعد متسلقا على المنحدر الشديد الأخير. ومن أعلى كانوا مثل هياكل رقيعة

تحت ضوء الشفق الخافت، وهرول المقتفيان للأثر هنا وهناك فوق الشاطئ الصغير وشاهد آثار أقدام كينو الصاعدة إلى أعلى نحو الصخرة قبل أن يشربا من الماء. وكان الرجل الذي يحمل البندقية جالسا على الأرض في استرخاء. وكان الرجلان الآخران قابعين بالقرب منه ومع حلول الظلمة كانت سجائرهم تتوهج وتخبو وبعدئذ أدرك كينو أنهم كانوا يأكلون وترامى إلى سمعه الدمدمة الخفيفة لأصواتهم.

وبعد ذلك هبط الظلام عميقا وأسود وقاتما في الممر المشقوق بالجبل.. واقتربت من البركة الحيوانات التي اعتادت أن تجيئ إليها، فشمت رائحة الرجال هناك فانساقت بعيدا مرة أخرى إلى طيات الظلام.

وسمع كينو تمتمة خلفه. وكانت جوانا تهمس «كويوتيتو». كانت تتوسل إليه أن يركن إلى الهدوء.. وسمع كينو الطفل ينخرط في نشيج وأدرك من الأصوات المكتومة أن جوانا غطت رأسه بشالها.

وإلى أسفل وفوق الشاطئ أشعل عود ثقاب، وأدرك كينو خلال الضوء اللحظي للكبريت أن رجلين من الثلاثة رجال كانا نائمين وكانا متكورين مثل كلبين بينما الشخص الثالث كان مكلفا بالحراسة وشاهد كينو لمعان البندقية تحت ضوء عود الكبريت. ثم انطفأ عود الكبريت ولكنه ترك صورة منطبعة فوق عيني كينو.. كان بمقدوره مشاهدة تلك الصورة: الحالة التي كان عليها كل رجل.. اثنان نائمان متكوران والثالث قابع القرفصاء على الرمال والبندقية بين ركبتيه.

وتحرك كينو للوراء في بطء إلى داخل الكهف وكانت عينا جوانا شرارتين تعكسان نجمة منخفضة. فزحف كينو بسرعة مقتربا منها ووضع شفتيه بالقرب من خدها.

وقال: «توجد طريقة.. توجد وسيلة»

- «ولكنهم سوف يقتلونك».

فقال كينو: «إذا وصلت أولا إلى الرجل الذي يمسك بالبندقية فإنني سأكون على مايرام. حيث يوجد شخصان نائمان».

فزحلت يدها من تحت شالها وأمسكت بذراعه.

وقالت: «إنهم سيشاهدون ملابسك البيضاء تحت ضوء النجوم».

فقال: «لا.. ويجب على أن أذهب قبل طلوع القمر».

وبحث فى ذهنه عن كلمة حلوة ولكنه غير رأيه. وقال: «إذا تمكنوا من قتلى. استلقى فى هدوء إلى أن ينصرفوا بعيدا عن هذا المكان ثم اذهبى بعد ذلك إلى توريتو».

وارتعدت يدها قليلا وهى تمسك بمعصمه. وقال لها: «لا يوجد أمامى أى بديل آخر. فهى الوسيلة الوحيدة. لأنهم سيطلون علينا فى الصباح».

وارتعد صوتها بعض الشئ وهى تقول له: «الله معك!».

فنظر محملقا عن كثب إليها وتمكن من مشاهدة عينيها الواسعتين. وتحسست يده فى تخبط وعثرت على الطفل الرضيع

واستقرت راحة يده للحظات قليلة فوق رأس كويوتيتو . ثم رفع كينو يده عن الطفل ولمس بها خد جوانا . فكتمت جوانا أنفاسها .

وفى مواجهة صفحة السماء وفيّ مدخل الكهف أدركت جوانا أن كينو كان يقوم بخلع ملابسه البيضاء فرغم أنها كانت ممزقة وبالية وقذرة إلا أنها كانت ستظهر بوضوح على صفحة الليل السوداء . أما بشرته البنية فكانت بمثابة أفضل حماية له . وبعدئذ أدركت كيف أنه قد ربط خيط الرقبة الخاص بالتعويذة بالمقبض القرنى لسكينه الكبيرة ، حتى أنها كانت تتدلى لأسفل أمامه وبذلك أصبحت كلتا يديه شاغرتين . ولم يرجع إليها . كان جسده أسود للحظات فى مدخل الكهف وجاثما وصامتا وبعدئذ اختفى .

وتحركت جوانا إلى المدخل ونظرت إلى الخارج . وراحت تحملق وتمعن النظر من ذلك الثقب بالجبل مثل البومة . وكان الطفل نائما تحت البطانية فوق ظهرها وكان وجهه متخذا زاوية جانبية مابين رقبتها وكتفها . وكانت تشعر بأنفاسه الدافئة تمر على بشرتها وراحت جوانا تهمس بصلواتها الممزوجة بالسحر والشعوذة :

ليكن السلام ثلك يامريم بالإضافة إلى الشفاعات الموغلة في القدم والخاصة بها.. وتوجيه كل ذلك ضد الأشياء السوداء اللاانسانية.

وبدا الليل كأنه أقل ظلاما عندما نظرت إلى الخارج وإلى جهة الشرق كان هناك برق في السماء في مساحة منخفضة قريبة من الأفق ومن نفس المكان الذي سيبزغ منه القمر. وعندما ركزت بصرها إلى أسفل شاهدت ضوء سيجارة الرجل المكلف بالحراسة والمراقبة.

وتقدم كينو تدريجيا مثل سحلية بطيئة هابطا على الكتف الصخري الناعم. وكان قد أدار خيط الرقبة لكي تتدلى السكينة الهائلة إلى أسفل من فوق ظهره. ولكي لاتصطدم بالصخور وتحدث أصواتا. وأمسك بأصابعه الممتدة صخور الجبل.. ووجدت أصابع قدميه العاريتين العون من خلال التلامس، وحتى صدره كان يستند على الصخور لكي لاينزلق. لأن أي صوت: أي زلطة متدحرجة أو أي تنهيدة أو أي انزلاق خفيف للحم على الصخر قد تثير انتباه المراقبين أسفله. وأي صوت غير متوافق مع همس الليل سيجعلهم في غاية اليقظة والحذر.

إلا أن تلك الليلة لم تكن صامتة: إذ كانت ضفادع الأشجار الصغيرة التى تعيش بالقرب من جدول الماء تنقنق مثل الطيور، كما أن للرنين المعدنى العالى لحشرات السيكادا كان يملأ الشق الجبلى. والموسيقى الخاصة بكيدو كانت تدور فى داخل رأسه.. أما موسيقى العدو فكانت منخفضة وناعمة ونائمة تقريبا.

ولكن أغنية العائلة كانت قد أصبحت متوحشة وجلادة وغادرة وماكرة مثل زمجرة أنثى حيوان الكوجر.. كانت أغنية العائلة متدفقة الآن بالحيوية وتدفعه للانقضاض على العدو الأسود. وبدا على حشرات السيكادا ذات الصوت المزعج أنها منهمكة فى الأغنية الخاصة بها، وأن ضفادع الأشجار قد رددت بعض فقرات من تلك الأغنية.

وزحف كيدو فى صمت شديد مثل الظلال نازلا على الوجه الناعم للجبل. تحركت قدم واحدة عارية بوصات قليلة فلمست أصابع القدم الحجارة وتشبثت بها بشدة.. وتحركت القدم الأخرى بوصات قليلة، ثم تحركت راحة إحدى اليدين قليلا لأسفل.. ثم تحركت اليد الأخرى إلى أن تحرك الجسد بأكمله بدون أن يبدو

عليه أنه يتحرك. وكان فم كينو مفتوحا لكي لايحدث شهيقه وزفيره أي صوت، لأنه كان يعرف أن جسده يمكن أن يشاهد إذا صدرت عنه أي حركة. فإذا استشعر المراقب حركة ما ونظر نحو المكان الداكن الملاصق للصخر، والذي هو بمثابة جسد كينو، فإنه يمكن أن يشاهده بسهولة. ولذلك كان الأمر يتحتم على كينو أن يتحرك ببطء شديد لكي لايجذب انتباه المراقب. واستغرق وقتا طويلا. وأخيرا وصل إلى القاع وجثم وراء شجرة نخيل قصيرة للغاية. كان قلبه يدق كالرعد في صدره وكانت يداه ووجهه مبللين بالعرق. وجثم وأخذ أنفاسا طويلة بطيئة كبيرة ليهدئ من نفسه.

لم يكن يفصله عن العدو سوى عشرين قدما في تلك اللحظة.. وحاول أن يتذكر طبيعة الأرض بينه وبين العدو. هل كان هناك أي حجر قد يعرقله أثناء انقضاضه؟ وراح يدلك ساقيه لكي لاتحدث بها تقلصات عضلية، واكتشف أن عضلاته كانت ترتعش بسبب تعرضها للتوتر لفترة طويلة. وبعدئذ ألقى نظرة مليئة بالخوف والقلق وتوقع للشر إلى جهة الشرق. إذ أصبح من المتوقع

أن يظهر القمر في خلال دقائق قليلة . ولذلك ينبغي عليه البدء في الهجوم قبل طلوع القمر.

كان بمقدوره مشاهدة الخطوط الخارجية للشخص الحارس الذي يرقب الموقف. ولكن الرجلين الآخرين الذائعين كانا تحت الأشياء المرئية بالنسبة له. وكان الحارس هو الشخص الذي ينبغي على كيلو أن يلاقيه ويقضي عليه بسرعة كبيرة وبدون تردد. وفي صمت جذب خيط التعويذة على كتفه وفك الأنشوطة من المقبض الذي يشبه القرن والخاص بسكينه الكبير.

إلا أنه تأخر أكثر من اللازم لأنه بينما كان ينهض من الوضع المنحني الرابض الذي كان عليه انزلقت الحافة الفضية للقمر فوق الأفق الشرقي فهبط كيلو متراجعا خلف الشجيرة التي كان يستتر خلفها..

كان قمرا أشعثا وعجوزا، إلا أنه ألقى بضوء خال من الضعف كما ألقى بظلال قوية على الممر المشقوق بالجبل. وعندئذ أصبح بمقدور كيلو مشاهدة الهيكل الجالس للشخص الحارس فوق الشاطئ

الصغير بجوار البركة. وحملق الحارس طويلا في القمر ثم أشعل سيجارة أخرى وأضاء عود الثقاب الوجه الداكن للحارس للحظات. وهنا لم يعد هناك مجال للانتظار.. وينبغي على كيلو أن يهجم قافزا عندما يثير الحارس رأسه. وكانت ساقاه مشدودتين مثل الزنبرك الملفوف.

وهنا ترامى من أعلى صرخة متعتمة صغيرة.. فأدار الحارس رأسه ليصغي ثم نهض واقفا وتحرك واحد من الشخصين النائمين على الأرض واستيقظ وتساءل في هدوء: «ماهذا الصوت؟».

فقال الحارس: « لاأدري». واستطرد: «أنه يشبه صوت الصيحة.. يكاد يشبه صيحة آدمية.. يكاد يشبه صوت طفل رضيع».

وقال الرجل الذي كان نائما: «لايمكنك أن تتوصل إلى حقيقة الأمر. فبعض أنثى الذئاب تشكو وتتوجع أثناء الولادة. ولقد سبق لي أن سمعت ذئبا صغيرا رضيعا يصيح مثل الطفل الآدمي الرضيع».

ونزل العرق متدحرجا في قطرات من جبهة كينو وسقط في عينيه وأحرقهما. وصدرت الصرخة الصغيرة مرة أخرى فنظر الحارس إلى أعلى نحو جانب التل ثم الى الكهف المظلم.

وقال: «ربما هو ذئب من نوع القيوط».

وسمع كينو صوت الطقطقة الخشنة وهو يرد البندقية إلى الوراء استعدادا لإطلاق الرصاص.

ثم قال الحارس وهو يرفع البندقية ويصوبها:

«إذا كان هذا صوت ذئب فإن هذه الرصاصة ستسكته».

وكان كينو في منتصف للقفزة الهجومية عندما دوى صوت البندقية وطبع وميض الماسورة صورة فوق عينيه. فانطلقت السكين الضخمة تضرب وتسحق وتقطع تماما. إذ ضربت العنق وتوغلت في أعماق الصدر، وأصبح كينو مثل الآلة الرهيبة. ثم أمسك بالبندقية بينما كان يجذب سكينه وينتزعها من جسد الرجل. كانت قوته وحركاته وسرعته مثل الماكينة الآلية. واستدار وضرب رأس الرجل الجالس مثلما يضرب بطيخة. وفر الرجل

الثالث متخبطا في خربشة مثل الحيوان الصدقي المائي وانزلق إلى بركة الماء.. ثم بدأ يتسلق في جنون ليصعد إلى المنحدر الصخري الشاهق حيث تنساب المياه إلى أسفل... وتشبثت يداه ورجلاه في للحبائل المتشابكة للكرمات البرية وراح يلن ويتوجع ويرطم أثناء محاولته النهوض على قدميه.. إلا أن كينو كان قد أصبح مميتا ومهلكا وفاقد الاحساس مثل فولاذ سكينه. وفي تأني وتروي شديدين حرك عقله للبندقية، ثم رفع البندقية وصوب في هدوء وأطلق النار. وشاهد عدوه وهو يتشقلب للخلف ويسقط في البركة. فسار كينو بخطوات واسعة إلى الماء. ونحت ضوء القمر تمكن من مشاهدة العينين الخائفتين في جنون. وصوب كينو البندقية وأطلق الرصاص بين العينين.

وبعد ذلك وقف كينو وقد انتابته بعض الشكوك الغامضة. كان هناك شئ غامض كانت هناك إشارة ماتحاول النفاذ إلى ذهنه. وكانت ضفادع الأشجار وحشرات السيكادا قد التزمت بالصمت المطبق عقب الأحداث الدامية. وبعد ذلك تخلص ذهن كينو من التركيزات الحمراء الخاصة به فعرف الصوت ـ الصرخة النادبة في

عويل المليئة بالأنين المتصاعدة في هستيريا الجنون من الكهف الصغير عند جانب الجبل الصخري. صرخة الموت.

أن كل شخص في الاباره يتذكر عودة العائلة.. ربما كان هناك بعض الأشخاص العجائز اثنين شاهدوا بأنفسهم عودة الأسرة ولكن أولئك الذين سمعوا القصة من آبائهم ومن أجدادهم يتذكرونها على الرغم من أنهم لم يشهدوها بأنفسهم. فهي حدث هام قد وقع لكل شخص.

وفي وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر الذهبية جرت أول مجموعة من الأطفال الصغار في جنون هستيري إلى داخل المدينة ويدلوا أنباء تفيد أن كينو وجوانا يشقان طريقهما عائدين. فسارع كل فرد ليشاهدهما. وكانت الشمس تهبط تدريجيا تجاه الجبال الغربية وكانت الظلال على الأرض طويلة. وربما كان ذلك هو الذي ترك انطباعا عميقا على أولئك الذين شاهدوهما.

لقد وصل الاثنان من الطريق الريفي الملئ بالأخاديد إلى المدينة. وكانا لايسيران في طابور واحد. كان كينو في المقدمة

وجوانا خلفه كالمعتاد ولكن جنبا إلى جنب، كانت الشمس خلفهما، وكانت ظلالهما الطويلة تمشي في بطء أمامهما وقد بدا عليهما أنهما يحملان معهما أسدار الظلام. كان كينو يحمل بندقية على ذراعه.. وكانت جوانا تحمل شالها مثل سترة فوق كتفها. وفي داخل السترة كانت توجد صرة ثقيلة لينة صغيرة. وكان الشال مكسوا بقشرة من الدماء الجافة وكانت الصرة تتمايل قليلا أثناء سيرها. كان وجهها جامدا ومغضنا وشبيها بالجلد المدبوغ بسبب التعب والاجهاد الشديد، وبسبب التوتر الشديد الذي حاربت به التعب، وكانت عيناها الواسعتان تحملقان إلى الداخل وتنعكسان على نفسها. كانت بعيدة ومنعزلة مثل السماء..!

وكانت شفتا كينو مزمومتين وفكاه مشدودتين في احكام. ويقول الناس أنه كان يحمل الخوف معه، وأنه كان في مثل خطورة العاصفة المتصاعدة. ويقول الناس أنه قد بدا عليهما وكأنهما قد انتزعا من التجربة الانسانية.. وأنهما قد اجتازا تجربة الآلام وبزغا الى الجانب الآخر، وأنه كانت هناك هالة من السحر تكتنفهما تقريبا. وأولئك الناس الذين اندفعوا وتدافعوا لالقاء نظرة عليهما قد

تراجعوا متدافعين في زحام إلى الوراء وتركوهما يمران ولم يتكلموا معهما.

سار كينو وجوانا عبر المدينة كما لو كانت المدينة غير موجودة هنالك.

كانت عيونهما تلقي نظرات خاطفة لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ولا إلى أعلى ولا إلى أسفل.. وإنما تتم العملية في خط مستقيم للأمام.

كانت سيقانهما تتحرك في اهتزاز بعض الشئ مثل الدميات الخشبية المتقنة الصنع. وكانا يحملان أعمدة من الخوف الأسود فيما حولهما.

وبينما كانا يسيران عبر مدينة الأحجار والجص كان التجار والوسطاء والسماسرة يحملقون فيهما من وراء النوافذ ذات القضبان الحديدية وكان الخدم ينظرون بعين واحدة من البوابات المفتوحة فتحة ضيقة. وكانت النساء تدير أوجه أطفالهن الصغار إلى الداخل.

وسار كينو وجوانا بخطوات واسعة عبر مدينة الحجارة والجبس، ومنها إلى المنازل المشيدة من أغصان الأشجار. وكان الجيران يتراجعون إلى الوراء ويدعونهما يمران. ورفع جوان توماس يده تحية لهما ولكنه لم ينطق بالتحية وترك يده معلقة في الهواء في غير يقين للحظات.

وفي كينو كانت أغنية العائلة متوحشة مثل الصرخة. كان كينو منيعا وحصينا ورهيبا وكانت أغنيته قد أصبحت صراخ معركة.

وسارا في ارهاق وتعب واجهات إلى مابعد المربع المحترق الذي كان يوجد عليه منزلهما بدون أن يلقيا ولو نظرة واحدة على ذلك المكان. واجتازا الشجيرات الصغيرة التي تحف ثم سارا في حذر واحتراس في الماء. ولم ينظروا نحو زورق كينو المكسور.

وعندما وصلا إلى حافة الماء توقفا عن السير وحملقا للأمام فوق الخليج. ثم وضع كينو البندقية على الأرض وتوغل بين طيات ملابسه وبعدئذ أمسك باللؤلؤة العظيمة في يده.

وأنعم النظر في سطح اللؤلؤة وكان سطحها رماديا ومتقرحا. كانت هناك وجوه شريرة تطل من اللؤلؤة وتنظر في عيني كينو وشاهد كينو ضوء الاحتراق.

وفي سطح اللؤلؤة شاهد كينو العينين المسعورتين للرجل في البركة. وفي سطح اللؤلؤة شاهد كينو ابنه كويوتيتو مستلقيا في الكهف الصغير وقد أطاحت الرصاصة بالجزء العلوي من رأسه.

وبدت اللؤلؤة قبيحة أمامه.. بدت رمادية ومثل خراج مميت. وسمع كينو موسيقى اللؤلؤة مشوهة ومجنونة. واهتزت يد كينو بعض الشئ والتفت في بطء إلى جوانا وعرض عليها اللؤلؤة. فوقفت إلى جواره وهي مازالت ممسكة بالصرة الميتة فوق كتفها. ونظرت إلى اللؤلؤة المعروضة في يده للحظات ثم نظرت بعمق في عيني كينو وقالت في نعومة: «لا.. أنت».

وهنا طوح كينو ذراعه للخلف وألقى باللؤلؤة بكل مالديه من قوة. وشاهد كينو وجوانا اللؤلؤة وهي تنطلق في الهواء وتتغامز

وتلمع وتسطع وتتلألأ تحت ضوء الشمس الغاربة. ووقفا جنبا إلى جنب يرقبان المكان الذى غاصت فيه لفترة طويلة.

وترسبت اللؤلؤة تدريجيا فى المياه الخضراء الحبيبية وسقطت تجاه القاع. وتدلت عليها الأغصان الملوحة للطحالب المائية، وأومأت اليها وأشارت إليها، ووجهت الدعوة لها.. وكانت الأنوار فوق سطحها خضراء ومحببة للنفس. واستقرت اللؤلؤة فوق القاع الرملى بين النباتات الشبيهة بنبات السرخس. وفوق صفحة الماء كان السطح بمثابة مرآة خضراء. وكانت اللؤلؤة ترقد فوق قاع البحر. وجاء سرطان بحر وراح يعدو ويجرى ويهرول فوق القاع فأثار سحابة صغيرة من الرمال وعندما هدأت السحابة توارت اللؤلؤة واختفت.

وانحرفت موسيقى اللؤلؤة إلى مجرد همس واختفت نهائيا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

اللؤلؤة

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٨/٩٨٢٨
I.S.B.N. 977-01-5842-9

٩٩



وما زال … العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إ… وار النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل وما زا… المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومك…

شبت التجربة لأسر… القراءة للجميع عن الطوق ودخلت مكتبة الأ… الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان …ميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق … هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم …حر بالـ… من لآلىء الإبداع الفكري والأدبي والعلمي ترسخ في وجدان أهلي وعشيرتي أبناء وطني مصر المحروسة مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

القراءة للجميع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب